وزارة الثقافة

قصص قصيرة

عمر حَمَّش

تغريدة النّورَسِ الأَخيرَة..

رقمنة
وزارة الثقافة
Ministry of Culture
برنامج الحفاظ على الرواية

تغريدة النورس الأخيرة
وقصص أخرى

عمر حمَش

(2024)

مشروع إصدارات غزة

إشراف: جاد عزت الغزاوي

■ تغريدةُ النورسِ الأخيرة.. وقصصٌ أخرى - عمر حَمّش

منشورات

وزارة الثقافة الفلسطينية

رام الله، فلسطين

جميع الحقوق محفوظة.

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعمال المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال لأغراض تجارية، دون إذنٍ مسبق من الناشر، كما ويمكنكم الحصول على الكتاب من موقع وزارة الثقافة الإلكتروني - "رقمنة" من خلال الموقع أدناه.

تصميم غلاف: غاوي خليل | تدقيق لغوي: نور عرفات

All rights are reserved

No part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means, electronic, photocopying, recording or otherwise, without prior permission of the publisher. You can also get the book from the Ministry of Culture website through the website below.

www.moc.pna.ps/listBooks.php

تغريدةُ النورسِ الأخيرة..
وقصصٌ أخرى

عمر حَمّش

الرقم الوطني لدى المكتبة الوطنية الفلسطينية
عن كتاب تغريدة النورس الأخيرة وقصص أخرى
(Ps-2024-42)
الواصفات: /أدب//قصص قصيرة/

يتحمل المؤلف / الناشر كامل المسؤولية القانونية عن مؤلفه

[1]

صمود

حرضنــي تحريـضَ الحكيـمِ؛ لمـن رآه آيـلًا إلــى السـقوط: عـزّز صمـودك.

فـي اليوم التالـي؛ خرجـتُ مـن خيمتـي، قلـتُ معـه حـقٌّ، وسـبعون حقًّـا، وكان النازحـون قـد حطّـوا علــى الشــاطئ حــطّ الجــراد، تزاحمهـم خــارج المــوج، البغــال، والــكلابُ، والحميــر، وداخلــه كانـوا يتراشـقون.

وعبــرتُ علــى نيّــة الانخــراط؛ حتــى ضربــتْ المــاء الجمــوع، وعبــرت البغــالُ، ونبحــتْ فوقــي كلابٌ مجــرورة خائفــة، ونهقــت حميــرٌ راجفــة،

وســمعتُ ضراطًــا كثيـرًا، حتــى حسـبتُ البحـر؛ صــاح لاعنًــا هــذه الحــرب التــي قلبتــه رأسًــا علــى عقــب.

وتدحرجــتُ بيــن البهائــم والنــاس تدحــرجَ الفــار، ووصلــتُ الرمــل؛ فاســتلقيتُ، وكانــت عينــاي علــى الخيــام؛ حيــن هرولــتْ مــن خيمتهــا أم صاحبــي، وشــرعت لــي تولــول: صاحبــك مــات.

صرختُ: مات؟

وقالت؛ وهي تلهثُ:

آه.. صاحبك انفجر.. مات.

[2]

الملائكةُ تمرّ دومًا من هنا..

من البحرِ يخرجون
أو يسقطون كما اللهب..
علـى رأسِ كلّ خيمـةٍ يتوقـفُ مـلاكٌ، مـع وشـاحٍ، بلـونِ الحليـب، إذ صفا..
من الموجِ يخرجون إلى الرملِ، مع نورِ المعرفة..
لطافًا كما الأفقِ القريب..
يتطوون مع الموجِ طيّ الأقمشة..
وكلّ ثكلـى كانـت ترقـبُ الليـلَ، وتتماهـى مـع الهديـر؛ رأت مـلاكًا كالبصيـص، وظنّتـه قذيفـةً
أو سفينة آتية..
ثمّ رأينَ الملائكةَ تبتسم..
طيورًا كانوا، أو زهورًا..
أتوا بنورِ الله..
وكلّ ثكلى في الخيامِ ارتوت..

[3]

أمواج

وفـي خيمتـي جاءنـي؛ أنّ البحـرَ مـن بعـد رقرقـةٍ ارتفـع، حتـى حسبتُ الأمـواجَ جبـالًا تندفـعُ، ورأيتُ جمـوع النازحين؛ يسـتعيذون، ويحوقلـون، وبـدؤوا بسـحب مـا تبقـى فـي الخيـامِ مـن متـاعٍ، ومـن أفرشـة.

وخطـوتُ متفرسًـا، لكنـي عجبـتُ لسـكينةٍ طـرأت، ورأيـتُ أمّ خليـلٍ تسـبقني، وتهلـلُ، وقـد خرجـت مـن عبوسـها، وشـهقتْ النـاسُ؛ وهـي تعبـرُ، والأمـواجُ تصطـفّ؛ وتنحنـي، وأمّ خليـلٍ تهدهدهـا كحمـلانٍ، وعلـى مـدى العيـنِ تسـتكين.

ثـمّ جاءتنـا موجـةٌ مـن الأفـق البعيـد، واسـتدار المـوجُ كلـه، ليبتسـم للموجـةِ القادمـة، وكانـت تتقلّـبُ، وتغيـر قوامهـا؛ حتـى بانـت لنـا جمـلًا بأحمـالٍ، وشـدّنا مـا جـرى، حتـى انجلـى الأمـرُ، واسـتقرتْ الموجـةُ الجمـل بيـن يـديّ أمّ خليـلٍ، وعـن ظهرهـا نـزل أفـرادُ الركـبِ، وتبينـوا لنـا سـالمين، وبأطـرافٍ كاملـة، بـلا تقطيـعٍ فيهـم، وبـلا نقصـان، وصحـتُ، وصـاح آلافُ النازحيـن:

أعادتْ الموجةُ أولاد أمّ خليل.

[4]

لصوص

أنت سرقتَ المخدّة!

بل دفعتُ ثمنها عدًّا ونقدًا.

لسارقٍ؟

بل لمحلٍّ مُشرعٌ بابه.

في سوقِ الحرامية؟

ويخضّ عليها رأسه، ويروح.. تلطمهُ كفّ، وتغادر، وتحت السقفِ تهزّ أنصافَ أصابع.

يستديرُ هاربًا؛ فيتشكّلُ صمتُ عينين، ويرشحُ عنقٌ مبتور.

هذه أقذرُ الحروب.

تقولُ ذلك، يا سارقَ المخدّة؛ لتهرب.

لكن لمن كانت؟

لموظفٍ كبيرٍ، أم لحارثِ حقلٍ، لخدّي عجوزٍ أثخنها الزمان، أم لسيدةٍ بخدٍّ أسيل، وتتشبث بالاحتمال الأخير.. تغمضُ؛ لتبحثَ عن بقايا حلمها، من قبل عبور القذيفةِ، ويتلوها السارقُ، أحالمةً كانت، تنسجُ عصافير، وتنثرُها، وتصوغُ لها الأغاريد؛ فتراود شعرَها كفُّ العشيق.

وتغمضُ أكثر؛ ويصيحُ الآخرُ فيك:
أيّها الحاذق: بل كانت أرملةَ قتيلٍ؛ أردوهُ في حربٍ سابقة.
وتقفزُ، والآخرُ يعودُ:
لمَ اشتريتَها؟
كنتُ بحاجةٍ لمخدّةٍ، ألوذُ إليها في خيمتي الفارغة.
أنت سارقٌ من سارق.
كل البيوتِ مباحةٌ، القائمةُ منها، والمنهارةُ، كلّ البيوتِ اقتحموها، وأخرجوا ما فيها.
تعلمُ؛ كيف كانت ناسٌ تموتُ، وناسٌ تنهَبُ، بيتي أيضا، من بعد هروبنا؛ داسته أقدامهم.
أخبرني النازحون:
أفرغوه، وحمّلوا ما فيه على الظهور، ومكثوا؛ يهرولون، حتى بات عفشكُم موّزعا على محلات سوق الحرامية.

[5]

لحظة جنوح

أمسك بحلقيَ الاختناقُ، وهدّني الضجرُ، وحرتُ في ما أفعله.

وكان النازحون داخل قماشِ الخيام، أو خارجه؛ يسيطرُ عليهم الوجوم، ويملؤهم القلق؛ حين بحثتُ عن تسجيلٍ قديمٍ في هاتفي، كنتُ حفظته من قبل هذه الحربِ اللعينة، ولمّا عثرتُ عليه؛ أشعلته.

في لحظةٍ غرق الناظرون في العجب، واحتاروا، وعيونهم بحزنٍ تقول:

جُنّ الرجل.

وللحقّ؛ حتى أنا أصابني الشكّ في أمري، ومثلهم لم أفهم ما فعلتُ، وأمّ كلثومٍ تصدح لي، ولهم:

أنت عمري..

[6]

نسيان...

طالـت الحـربُ، طالـت كثيـرًا، ومـن معـه قضَـوا متتابعين، رحلـوا؛ لكنّهـم ظلـوا عالقيـن فـي عينيـه.. شـيءٌ واحـدٌ فقـط ينسـاه، وإن جـاءه
لبرهةٍ؛ عاد، راح.
كلّ فقدٍ يذكرُ تفاصيلـه، طقسَ حدوثـه، ولـونَ السّـماء، وإذا مـا كان وقـت صفـوٍ، أم مـع صفيـرِ ريـح.
محمـدٌ تناثـر، وجمعـوه عـن التـرابِ، ومـن علـى حائـطٍ، بقّعتـه شـمس بدوائـر نـور.
وغيث داسته غابةٌ لاهثة، تجري خلف مِظلةِ مساعدةٍ ساقطة.
فاطمـة شـهقتْ فـوق غيـثٍ، ولـم تقـم، عليـه زفـرتْ بقايـا النفَسَ الأخيـر.
وأمّـا نـوال؛ فتسلـى بجبهتهـا قنـاصٌ، وثقبهـا عبـر منظـارِه العالـي البعيـد.
لـم تُبـقِ الحـربُ سـواه، وكلّ مـرةٍ هـرول خلـف واحـدٍ إلـى مدفـنٍ جديـد.
شـيءٌ واحـدٌ ظـلّ يبحـثُ عنـه، فـي خيمـةِ النـزوحِ يصفـعُ جبهتـه، وفـي الخـارجِ يحـدّقُ، ويرمـقُ الزّحـام، إلـى أن يرفـع أحـدٌ كفّـه:
مرحبا صالح.
ويصيحُ ضاربًا كفًّا بكفٍّ:
أيوا.. صالح، صح.. صالح.
ثمّ يعود؛ يبحثُ عن اسمه من جديد.

[7]

نحنُ والقمر

وعندما هاجم بحرُ المواصي الخيام، وضجّت النساءُ، وتسارعن إلى سحبِ صرر المتاع؛ استلّ الرجالُ المجارف، وشرعوا على عجلٍ في صنعِ تلال رمل؛ تحوّط ما تبقى من خيامٍ، لم تمزقها الأمواج.

وأما مَن ساحت خيامهم في المياه العالية، وتشظت فيها نتفًا تباعدت؛ فتركوها مع متاعهم، تتضارب مع الأمواج العاتية، وكأنها في مغسلةٍ كونيّة، وهم على سيقانهم يتقافزون تقافز المراوغة مع السيول الدافعة.

لكنّ المدهش أن الناس صاروا علماءَ جاذبية، ومحللي مدٍّ، وجزرٍ، حتى أنهم كانوا يلتفتون إلى قمر ١٣ هجري، وكخبراء يعلّقون:

وجهه اكتمل إلا قليلًا.. إنه الآن قابل البحر مباشرة.. ها هو ينحو ناحية الجنوب.

كلّ هذا والقمر فوقهم أحمر مشعّ.

وفي لحظةٍ كدتُ في هذا؛ أن أمارس الضحك، وأن أكون مجنونًا؛ حينما جاري كان ارتكز على مجرفته، ورمق بحرقةٍ القمر، ثمّ بصق.

[8]

إغاثة من الجوّ

مـن بحـرِ الخيـامِ رقـب الطائـراتِ.. ضربـتْ الشـمسُ الفـولاذَ السـمين؛ وسـطعَ، والنـاسُ تصيـح:
رَمَت.

تطـوفُ المظـلاتُ علـى جمـوعِ اللاهثيـن، وظلالهـا تـروغُ، وهـي تنـداحُ إلـى البحـرِ الوسـيع، ثـمّ تسـقطُ، لتصفـعَ المـاءَ، وتُحـدِثُ فرقعـة..
عبر فوهة خيمتِه؛ بصق ابتسامةً ساخرة.

***

ترمـي الطائـرة، ويحـدّقُ فـي الريـح؛ تأخـذُ المظـلاتِ إلـى هنـاك.. بعيـدًا؛ حيـثُ مـن أرسـلوا أولادهـم لقتلنـا..
يبصقُ ثانية.

***

جـاءت الطـائـرة، ورمَـت.. حطّـت المظلـة كطيـرٍ خرافـيٍّ ثقيـل علـى بــاب خيمته..

تلاقــت عينــاه بعينـــيّ شــريكته، وهلــل الصغــار، وقبــل أن يقــوم؛ كان جمـعٌ طوّقـه، حصـد مـا فـي طـرد المظلـة فـي لحظــةٍ، وبعـد ذلـك كلّـه؛ خلعـوا خيمتـة، وخطفـوا كلّ مـا كان؛ مـن إنــاءِ شـربٍ، وملعقــة، وبقايــا حصيــر.

وسط الخيام صار في بقعةٍ عارية.

حاول أن يبصق، لكن لم يجدْ همّةً كافية.

[9]

لحم دجاج في الخيام..

ليلُ الخميسِ يرنُّ النّقّال في خيمةٍ، ويُقفلُ النّقّالُ، ويعمُّ الرضا.

***

نهارُ الجمعة يعودُ النّقّالُ..
يبتسمُ المحظوظ أمام زوجته..
ينسلّ إلى نقطةِ تسلم الأكياس المرسلة..

***

اليوم الجمعة..
والرنينُ في خيمةٍ
وصغارُ الخيامِ يهرولون، ويلهثون:
بابا.. بابا.. جارنا، والله..استلم لحم دجاج.
في الخيامِ يصمتُ الآباءُ..
قلائلُ فقط يقولون:
جارنا ابن تنظيم.
ويفهمُ الصغارُ، أو لا يفهمون.

[10]

طبقٌ يدور

أصَمُ هو، وأبكمُ، وهي كذلك، حياتهما صمتٌ كامل، وفي تلك الليلةِ ذبالةُ شمعةٍ تُرقّصُ نورًا باهتًا، لم يعرفا ما في الخارجِ يدور، فقط نظرا من النافذةِ، ورأيا صفوًا راق، وأبهرتهما السماء بلونِ الرماد الفسيح، وظنّا سكون الدنيا الصامتة هدوءًا حلّ، وأقام.

صنع خيطًا دقيقًا، ليس غيره يراه، مدّه ما بين الفتيلة والقمر المعلّق، وعليه بعينيه سار، وتنقّل باستئناس..

كانت جواره ترقبه، واستأنست الأخرى؛ فتوردتْ..

رمقها؛ فراقتْ له، وعاوده الوهج الذي غاب، وابتسم.

لاحظته؛ فقامت؛ انتفضت ناثرةً شعرها، ودارتْ به؛ حتى صنعت طبقًا أسودَ، صار يجري حول وجهها، وعلى أنغام موسيقى قلبها؛ هزّت خصرها، ولوّت ذراعيها، وأسقطت ضحكات، سمعها بالقلبِ، وبالقلبِ وصلها صدى صفقِ كفيه، وأثملها ترنّحُ كتفيه، وكان هو أيضًا ثملًا.

حلّقا، وظلا يحلقان؛ إلى أن أسقطتهما أولى موجاتِ الدخان، وأطفأت شمعتهما، وعبأتْ المكان.

رأته حين قام؛ ليهرول، وتعثرت وهي تلحق به، وعلى النافذةِ

كانـا يشـهقانِ، ويسـعلان، وهمـا يحدّقـانِ فـي بيـت الجيـران، الـذي أمســى كومــة حطــام، وفــي ضــوء القمــرِ كان يطلــقُ الدخــان، واللّهـب.

بعدها اهتزّ بيتهما الصغير..

رأتــه صــرخ، ولــم تسـمعه، ورأت قبضــةَ كفّــه عندمــا انبسـطت، وعينــاه مــن بعيــدٍ ترمقانهــا، مــن خلــف كومــة باطــون.

رآهـا صرخـت، ولـم يسـمعها، وبـرز لـه نصـف قدمهـا، وشـعرُها انبسـط، ليدفـق سـائلًا لزجًـا، يخضّـبُ خصلاتِهـا بالأحمـر.

[11]

موجٌ ومقعد..

تقذفك الخيام مَلِكًا؛ هدَمت الحربُ عرشه، وتتخيرُ مقعدَ خشبٍ، لحافته دكّةُ تلميذ.

وترمقُ البحرَ القديم، وهو يتطوّى على توقيتِ الخلود، ويهدرُ إليك، والهديرُ كلام، والموجُ يقول:

مقعدك مسروق.

ويصرخُ قلبُك:

يا للصوص المدارس.

وتحاولُ أن تستكين..

هو بحرُك منذ حبوتَ على تربةِ الله، من بعد أوّل نزوح، وقد هجّرت أباك قذائفُ النكبة، وأتوا بك إليه؛ تصعد تلاله، وتهوي كمكتشفٍ، ودومًا تضيع، ليبرزَ خالُك على رأسِ تلّة، خالك ذاك الذي راح إلى الله.

مقعدُك كان لتلميذ.

يقولُ الموجُ.

وتقول:

وأين التلميذ؟

أببدنٍ اكتمال، لم يزل، أم قطّعته القذائفُ لقيماتِ كلاب.

وترغب في الهرولةِ بين الجموع، والمقعدُ يلدغك؛ فتقوم..

تدلفُ إلى خيمتك، ومن بين الشقوقِ؛ على الشاطئِ تراه، فوقه جثّةُ تلميذ، تتقلّبُ، أو تراه؛ انحنى على الدكّة، وهو إليك يشير، ويشهقُ البحرُ، ومعه صدرُك.

[12]

كأنها جدّتي

ليست هي، بل هي.

تظهـرُ وقـت الحـربِ، بكفّهـا رغيـفٌ.. نحيفـةً، بيضـاء، غـزا وجنتيهـا نمـشٌ قليـل.

ظهرت؛ وأنا كنتُ اثنين؛ طفلًا، وشيخًا تشاجرا:

هي، لا ليست هي.

وتشـيرُ بثقـةٍ، ويقـف لهـا كلّ عابـر، وتنثنـي، تهـوي، أو ظهرهـا ينزلـق، وتصيـر رقـم ٦، بالضبـط كمـا كانـت تفعـل جدتـي، وهـي تحـدّق مـادّةً بيدهـا الرغيـف:

خذه، أو أعطني أشتري غموسًا.

وكلانا نصيحُ: هي.

وقـت الحـربِ نبكـي اثنيـنِ، طفـلَ فـراشٍ، خـلا مـن دفـءِ حكاياتِهـا، وشـيخًا يـروغُ مـن رغيفِهـا الـذي بـلا غمـوس.

[13]

الأصنام..

لستُ أدري كيف هاجمتْ الأصنـامُ مدينتَنـا، ولا من أين تأتـتْ لهـا كلُّ تلـك الحركة.

كانـت خـارجَ نطـاقِ العمـران، نذهـبُ إليهـا، لنركـضَ مـن حولِهـا، وهـي شـاخصةٌ بعيـونِ الحجـر، وكثيـرًا مـا كنّـا نمتطيهـا؛ ونغافـلُ أعيـنَ الحـراسِ؛ ونحـنُ نبـولُ فـي مآقيهـا...

كانت الأصنامُ ملهانا، وقواعدُها ملاذَ العاشقين..

هنـاكَ؛ قـربَ الغـروبِ، وهـي تطـوي علـى خصورِهـا أذرعَ الرّخام، كان الهمـسُ يحلـو، وقـتَ تبـادلِ البـوحِ، وخلسـة القُبَل..

كانـتْ ميراثًـا منسيًّا مـن الماضـي البعيـد.. نخاطبُهـا؛ لا تسـتجيب، نركلُهـا؛ لا تصيـح، وبهـا نسـتظلّ، والشـمسُ مـن فـوقِ قاماتِهـا تُطـلُّ، لتنفـضَ عـن عيـونِ النهـارِ مـا تبقـى مـن غمـام..

ولستُ أدري ما جرى..

فجأةً وعلى غيرِ انتظار؛ تململتْ أصنامُنا، وكلُّ صنمٍ خطا.

فـي غَفلـةٍ مشـتْ فـي الطرقـاتِ، ودخلـتْ الأسـواقَ، والمـدارسَ، وأقفلـتْ مداخـلَ الحـارات.

لم ندرِ كيف كلُّ هذا حدث.

رجالُنـا، ونسـاؤُنا، وحتـى حاكـمُ مدينتِنـا مُلقـي الخُطَـب؛ كلُّهُـم لخطوِهـا صفّقـوا، ووقفـوا متفرجيـن فقـط، يحاولـون؛ فهـمَ مـا تدبـرُه لنـا أصنامُنـا. مـع الوقـتِ صـارتْ الأمهـاتُ يفقـدنَ الصبيـانَ، ومـع

البحـثِ يكتشـفنَ؛ أنَّهـم فـي حـوزةِ الأصنـامِ، وتحوَلـوا أصنامًـا صغيـرة..

برفـقٍ غزَتنـا الأصنـامُ، وحراسُـنا نائمـون، وفـي نـومِ حراسِـنا تناسـختْ أصنامُنـا..

أنـا عقلـي ظـلّ يعمـلُ، وظـلَّ صـدري يمـور.. أحـاولُ أن أفهـمَ، فـلا أفهـم.. وحيرتـي تعاظمـتْ؛ حينمـا رأيـتُ وجـهَ حاكمِنـا حجـرًا، لا يليـن، وأغـربُ الغريـب؛ أنَّ زوجتَـه تلـك التـي كانـت يانعـةً، وتُربـي الياسَـمين؛ ذوَتْ كشـجيرةٍ؛ مسَّـها اليبـاس، وصـارتْ ترفـعُ يـدًا حجريّـةً؛ متباهيـةً ببعلِهـا الجديـد..

شمسُـنا أيضًـا.. ذاتَ يـومٍ أعتمـتْ، ودقّقـتُ عينـايَّ فوقَنـا، وكان قلبـي يصيـح:

شمسُنا رحى حجرٍ معلّقة!

وصـرتُ أتحسـسُ لينَ جسـدي، وأتسـمّعُ حَـرَّ أنفاسـي؛ ثـمَّ أعـدو.. صـرتُ أعـدو؛ بـلا شـاغِلٍ بيـن أصنـامٍ رجـالٍ، وأصنـامٍ نسـاءٍ، أصنـامٍ كبـارٍ، وأصنـامٍ صغـار.

صـرتُ مهـرولَ مدينتِنـا، الباحـثَ عـن بقايـا كائـنٍ، حتـى أهـزّه، وأنـا أصيـح:

أنتَ حيٌّ يا صديق؟

[14]

من يغلق النافذة؟

فـي تلـك الليلـةِ، منـذ عقـودٍ، انتهـت المعركـةُ الصغيـرة، وقبـضَ الصّمـتُ علـى مخيمِنـا. أصغينـا لـدويّ أنفاسِـنا، ولهمـسِ الرّيـحِ، وترقبنا أن يأتيَنا من نافذةِ غرفتِنا، اللهُ لا رشاشُ العُوزي.

هيّـجَ الخـوفُ كلبًـا، فارتجفنـا، تمنينـا فنـاء القمـر ليلتهـا، لكـنّ القمـر ظـلّ بليدًا، يرسـل ضـوءًا باهتًـا كافيًـا أن يكشـفنا.

كنّـا تحـت النافـذة، كنّـا وحدنـا علـى وجـه الأرض، الكلـب أسـكت بطلقـة خافتـة، وغصنـا فـي بئـرٍ، والصمـتُ يقبـضُ علـى أنفاسـنا اللاهثـة.

دفـع الصهاينـةُ الأبـوابَ، وسـمعنا التوسـلَ، ثـمّ الرّصـاصَ المكتـوم، وصـراخَ مَـن هـووا خلفنـا علـى الجـدار..

فـي بطـنِ الغرفـةِ قفزنـا، فلقـد طـارَ بـابُ الـدار، حملقنـا طويـلًا، ثـم عدنـا إلـى الحيـاة؛ إنّ الـذي دَهمنـا كان علـى قوائـمَ مرتجّـة، ويهـزّ رأسًـا مترنحـة،

يـدُ أمـي قامـت، فتوقـف، لـم يدخـلْ الحمـارُ غرفتنـا؛ ظـلّ فقـط يرسـلُ عينيـن راجيتيـن.

لم ينهقْ الحمارُ، لكنّ جارَنا المجنونُ مزّق الصّمت:

- يا ناسُ، اليهودُ لا يقتلونَ أبو جواز سفر إنجليزي..

أمي لطمتْ وهي تهمسُ:

- من أين لنا جواز سفر إنجليزي؟

بعدها جرّوا رجلا انتابتهُ هلوسةٌ:
- أين أضع الإبريق يا خواجا؟
- وسمعنا الصّليةَ، والصّرخة.
عاد المجنونُ:
أبو جواز سفر إنجليزي.
كنا نرتعدُ، ورؤوسُنا مطأطئة، تحت نافذتِنا المشرعةِ الواطئة، من يجرؤُ على الارتفاعِ قليلًا، لإقفالِ النافذة؟
توسلنا لعينيّ الحمارِ، فظلّ لا يمارسُ حَقَه في النهيق، أخي الرضيعُ أيضًا فهمَ؛ فسكت، وكنّا ننتظر اللهَ متلاصقينَ.
مع أوّلِ خيطٍ للفجرِ عاد المجنون:
يا ناس تعالوا؛ هذا فلان مقتول؛ وهذا فلان.
رأسُ أمي قامت، ونحن تسلقنا كزواحف النافذة؛ فكان الرجالُ كومات. ورأيتُ صديقي يتنططُ على ساقٍ، والأخرى كانت محذوفة، وصل صديقي أباهُ المطخوخَ، وزحف عليه.
ولمحتْ عيناي امرأةً، تهجُم على رجلٍ ممزقٍ بعينينِ شاخصتين، هاجت المرأة ثمّ همدت عليه.
مخيمُنا صارَ نسوةً يجرينَ، يقلّبنَ الجثثَ ويولولنَ، أطبق الصراخ يومها، ويومها انطفأ آخرُ لون، وآخر مخلوق غادر وجه الأرض، وفي بحرنا القريب توقف الموج.

[15]

كنتُ هناك

حقيقيٌّ أنا، أم حلمٌ مشى على غيمٍ، أكائنٌ، أم وهمٌ من سراب؟
وأخطو على نَدفٍ من القطنِ، والناسُ حشودٌ، فوق الحشود، الناسُ غابات أيدي ناهشت رغيفًا.
وأهبط، أم تهبط بي الغيوم، وأجوسُ فيها، وأنا أرقب حشد الجوعِ الكسيح.
أرى قائدي الطائراتِ يعجبون، لكن لا يأبهون، وأسمع القهقهة؛ تصبحُ ضجيجَ قِرَب الحديد، ومن تحتي تقومُ أسافلُ البيوت.
ترتفعُ السقوفُ؛ ثمّ تهوي، وتتفتح علبًا من جحيم.
أسقطُ أنا، أو أكاد، والحشدُ يهوي، ونتف الرغيفِ تغمست بالدماء، وأرى الأحلام كيف قبل الموتِ تنفصل، وآخر ما تفعله الجثث؛ تتفتحُ، ثمّ تغمضُ، وكل جثة تطلقُ حلمها، وتتركه يطير. كنت ظننتُ الأحلام تحيا، وتتحققُ، ورأيتُها حمامًا؛ ترتدي ملامحها، وبذات سيقان أصحابها تخطو.
أنا كنت هناك، ولم أدرِ؛ إن كنتُ حلمي الهائم على وجهه، أم كنت أنا.

[16]

تغريدةُ النورسِ الأخيرة

أخَذتْ بتلابيبي؛ ثمّ استحكمتْ، حتى سَرَتْ في دمي.

قالت: حمامة أنا. وتطايرتْ.

قلتُ: وأنا نورسٌ.

بين الغيومِ كانتْ قبسًا، يخترقُ طبقاتٍ، ويمورُ، وكنتُ المتتبعَ بقلبٍ يرتجف، حتى حطّتْ على بلاطٍ، وسقطتُ مهيضًا جوارَها؛ لكنّها تباعدتْ، وتَحلّق خلقٌ، وخضضتُ دماغي، حتى تثبّتُ، وعرفتُ أننا بين فرنجةٍ يؤدون -وهي وسطهم- رقصةً قديمة، وكنتُ القريبَ، وكنتُ البعيدَ غارقًا في تأملي، ولا أقوى -مثلهم- على ممارسةِ تصفيقٍ، ولا صفير.. وترنّحوا، وهم الثملون، وأنا القلقُ. وأزادتهم من ترنُّحِها، وهي تسدلُ الذراعين، وترفعهما، وتوسعُ العينين، وتغمضهُما، وقومُ الفرنجةِ يهتزّون في حبور، إلى أنْ تضاءلتْ فجأةً، حتى عادت حمامةً ثلجيةً.. ارتفعتْ، فانتفضتُ، وعُدتُ نورسًا.. تصاعدَتْ؛ فتصاعدتُ، وارتفعنا، كم ارتفعنا، وعاد قلبي يرقصُ، وسابقتني في البعيدِ، حتى غدَتْ شمعةً أضاءتْ رأسَ فتيلِها، وتعمقنا غازيَيْن الفراغ الجميل، وتوسعنا، وكم توسعنا، تهوي؛ فأهوي، ونحطّ في كلّ مرّةٍ في بلادٍ، يحتفلون بها، وهي تُبرقُ بالجبين، وتقهقه بالعينين، وتشدو بألحانِ جدودي القديمة، ويرقصون في انبهارٍ، سودًا،

وبيضًـا، وشـقًّرا، وأنـا المصاحـبُ فـي كلّ حـالٍ، الخائـفُ الملتـاع، حتـى هَـوَتْ فـي السـحيق، وعـدتُ -كمـا فـي كلّ جولـةِ هبـوطٍ- أنـادي ربَّ السـماء، وخلفهـا أضـربُ بجناحيـنِ كنصليـنِ، وإذ بـي أجاورُهـا فـي أرضٍ، أحسـبُ أنـي كنـتُ قـرأتُ عـن رائحـةِ طينهـا، وكانـت هـي أميـرةً فرعونيـةً بيـن آلهـةٍ، وقدمـاءُ المصرييـن يضربـونَ بالدفـوفَ، وهـي تومـئُ، وأنـا الحـارسُ، والنيـلُ يعلـو، ويتضاحـكُ، وكلّ مـا حولَنـا يتسـقُ، وفـي قلقـي أسـترجعُ جناحـيّ، وهـي ترمقنـي، لتغرقنـي فـي بئـر نبيـذ، إلـى أنْ أنبتـتْ جناحيهـا؛ فأنبـتُّ أنـا، وعـادتْ؛ تصاعـدتْ، فتصاعـدتُ.. حلّقـتُ فـي فرحـي، وأُبنـا، والشـمالُ وجهتنـا، والشـمسُ تدفعنـا فـي ريـحٍ. حتـى طفنـا فـوق مخيمنـا فـي جباليـا، وفـي البعيـدِ رأيـتُ صفيـحَ سـقف بيتـي، والصغـارُ خمنتهم يشـيرون؛ ونحـن نسـقطُ في زحـامِ سـوقِ الأحـدِ، والحشـدُ يباعدُنـا، لأهـرولَ فـي البحـثِ، وأنـا أقـول:

أضعتها، ويا ويلي، أضعتُها.

ووجدتهـا متشـحةً بخِرقـةٍ، وبثـوبٍ بهـتَ قطنُـه، وتنتفـت خيـوطُ تطريـزه، يكسـوها شـحوبٌ خلـع قلبـي، ومـع عينيـن ذابلتيـن، تُرجفُ ذراعًـا وتبسـطُها، وصاحـبُ بسـطة يصيـحُ فـي نَـزَقٍ، وهـو يمنـحُ كفّهـا شـيكلًا، وهـي متلهِفَـةً تتلقفـه، وتضغـطُ عليـه..

[17]

عاشور

كان هو من يدخل الكَرْمِ، ويفتح في السّياجِ الثغرةَ، ويعبَر الدّاليةَ، ثمّ يعود إلينا، وبيده قُطفُ العِنب.
وكان هو من انفلت في حارتنا؛ وجلب شكاوى الجارات، وأمّه بهِ حارتْ، وصارتْ تعضُّه؛ فيأتينا مندفعًا عبْر الباب نحيلًا، مُصفرًّا، يهرشُ مؤخرته، ويهوي تحت الجدار. وكان دومًا مُشعّثًا، بجبهةٍ برزتْ، تحتها عينان أضاقهما رمَدُ الربيع.
وصرنا إذا ما علا في صحن كوخهم الضجيج؛ تباعدنا عن البابِ، من قبل أن يقذفه.
لكنّه صار فجأةً يغيب.. ربما ساعةً، ربّما أكثر، ثمّ يعودُ إلينا؛ ويهوي تحت الجدارِ صامتًا.
لم يعُدْ يكترث بغزواتِ شلّتنا، وفقط ينقّل عيني بدنٍ سكَن، ثمّ غدا يظهرُ مع وجهٍ نظيف، مصفّفَ الشَّعْر، يتبخترُ، وهو يرنو، ويبتعد.
تتبعناه في الحارات؛ حتى التوى إلى زقاق، وفيه مكث.
رقبناهُ؛ وكان واقفا كمتعبدٍ..
كنّا على قربٍ، وحِرنا؛ حتى فُتح بابٌ، وأضاءت ساقان، ثمّ تهادتْ تنورةٌ، ولاح مِشبك ورديّ، أمسك بشعرٍ انهدل.
ورأينا عينيه؛ تحدّقَان، وقد هزّت جديلتها كذيل فرس.
وكفّه امتدّتْ، لكنّها اختفتْ.
ورأيناه كيف انكفأ على آثارِ خطوِها، وشهقنا، ثمّ صحنا:
عاشور!
وكان يتنقّلُ على رسومِ خُفِّها، ويلثمُ رسْمًا، رسْمًا.

[18]

شلومو

في الليلِ أتاني بجنده..

فـي الرّيـحِ حشـرجَ جهـازُ الإرسـال، وقطّـعَ صمـتَ حظـرِ التجـوال، وكنّـا رُقـودًا، ورطانتُهـم تمـوجُ..

انطفأ محرّكٌ، وقلتُ:

جاء.

وانهمرَ الطَّرْقُ، وصار يصيح:

افتحْ.

لحظتها لم يوجدْ في كوكبنا؛ منْ يُبعدُ شلومو.

وتعجلني:

افتحْ.

والمِفتاحُ بيدي، وأنا أسأل:

وأين المفتاحُ؟

وصرختُ من ضيقي:

اكسره.

وطار بابُ الصّفيح، ودهَمنا، وصار يفتشنا..

فتّـشَ لحمنـا، وعظمنـا، ودقّـقَ فـي أنفاسـنا، ثـمّ كمنتصـرٍ قبـضَ علـى رمـادِ المِنفضـة.

صرخَ:

مِسودةُ البيان..

وهاج شلومو:

أين الماكنة؟

عاد في الكوخِ يجري.. قلّبَ متاعَنا الذي كان للتوّ قلّبه، ثمّ قلّبَ طَشتَ الغسيل،

وصمتَ.

صمتَ شلومو، وكان يحدّقُ..

[19]

عِنب

مرّ بي عبد السلام عجوزًا، بوجهٍ تغضّن، مترهلًا..
وأعاده الزمان؛ يوم أقنعني بالسّطوّ على كرم الأعناب.. مضينا نقطع التلال كقردين مسخوطين.
وتقدّمني هو مزهوًّا، يؤرجح ذراعًا، ويوسعُ الخطا،؛ ويشتمُ صاحب الكرم، ويتوعده.
اقتربنا؛ وشرعنا نمسح الموقع، والعناقيدُ تدلّت، وأنا ارتجفتْ مع بقايا النور.. نادتنا الأوراقُ، واهتزّت..
عبر السيّاج، ومثل قردٍ شجاعٍ قفز، وكنتُ أهمُّ؛ لحظة هوَت العصا على ظهره، وآخر ما سمعتُ، ورأيتُ:
صرخَتَه، وحبلًا يلتفُّ.
هرولتُ؛ لأهوي من فوق السفوح، وأصعدها؛ حتى وصلتُ باب كوخهم؛ وعاملُ الفأس المحدّب خرج، وأنا كنتُ غرابَ بينٍ نعب:
- ابنك محمود ربطه الناطور في كرم العنب.

[20]

إلى عبد الله أبو شرخ

انسحاب..

دربٌ، وأقدامٌ، وأشجارٌ..
وهناك قدماي، وروبُ ممرضة..
هناك صدأُ بابٍ خارجيٍّ؛ يقول:
ادخلوا غرقى.
وثمةَ درَجٌ يصيحُ:
سبيلُ الموتِ من هنا.
وهناك أنا؛ وانحناءةٌ، وشفاه..
مِن هنا بابٌ، وجسد، ثمةَ جسدٌ كان..
وأنابيبُ، وصدرُ جثّةٍ، علا، وانخفض.
ثمةَ أنا جئتُ
وكنتُ أنا، وثمةَ أمٌّ تسترضي اللهَ، وحفيدةٌ تشمُّ الموت..
وطيرٌ لم يُرَ..
طيرٌ خرجَ.. صنعَ دوراتٍ موزونةً ما بين جبهةِ الممدّد، وقلبي..
ثمةَ شخيرٌ، وأنبوبٌ، ثمةَ أنفٌ يقِظ..
هناك واحدٌ مني، وطيرٌ رشيق..
ثمةَ كفٌّ؛ تمتدُ بحقنةِ المُسَكّنِ..

وواحدٌ آخرُ مني؛ يهاجمُ القوارير..
وأمٌّ تسترضي، وحفيدةٌ تثغثغُ..
هناك جسدٌ يسابقُ، وروحٌ ينسحب..
هناك حديدُ السّريرِ الصلدُ الباردُ، وكفٌّ ممرضةٍ عائدة..
وهناك أخضّ أفرعي؛ وأفرُّ..
أنا أفرُّ، والدرَجُ يفحُّ:
هربتَ؟
وثمةَ أشجارٌ في قدميّ، وأغصانٌ في صدري تبكي..

[21]

سينما..

كنّا ننتظرُ مرسيدس مخيمنا؛ ونحنُ نستعيدُ أحداث
«صـراع فـي الـوادي» عرفنـا حكايـةَ الفيلـم مـن أحاديـث الكبـار أثنــاء جمعِنــا لأعقــاب ســجائر المقهــى، أحببنــا عمــر الشــريف، وكرهنــا الباشــا زكــي رســتم، وتخيلنــا حــلاوة فاتــن حمامــة، وهــم يقولــون:
مثل العسل...
قبـل تحركنـا إلـى سـينما النصـر؛ أضـاف كلٌّ منـا مـا شـاء إلـى الحبكـة، زوّجنـا، وطلّقنـا، اعتقلنـا الباشـا مرةً، وفـي أخـرى قتلنـاه، كنّــا نمـصُ أعقــاب الســجائر، وننفـثُ الدخــان، ونــروي، ونــروي. حيـن أوقـف فريـج المرسـيدس؛ هرولنـا، فعبأنـا السـيارة بضعـفِ حمولتِهـا.. انطلقـتْ بنـا، عفـرتْ عجلاتُهـا التـراب، ورأينـا لهـاث الأشـجار، وفـم فريـج فـي المـرآة، يطلـبُ منـا أن نخفـض رؤوسـنا. فـي ميـدانِ فلسـطين جـأرت المرسـيدس، ثـمَّ توقفـتْ.. لحظتهـا، فتحـتْ كلُّ الأبـواب دفعـةً واحـدة، وانطلقنـا نجـري متفرقيـن إلـى كلّ الاتجاهـات، وكان فريـج واقفًـا هنـاك، ينـادي:
يا أولاد الكلب!

[22]

الحرب والميدان

رثًا كان بشعرٍ متسخٍ، وبعينين بلون الطماطم.. ذاك خضر ابن حارتنا المجنون، يترنّح هادئًا تحت النوافذ، ونحن نتتبعه، فإذا ما نادينا عليه؛ هاج، وشرع بشتمنا، وشتمِ أمهاتنا. فإن شتم أحدُنا أمّه؛ بدأ بالصياح، وهوَ يتلقطُ الأحجار، ليبدأ بقصفنا، فإن أصاب أحدنا؛ قهقه، واختال، ثمَّ أشار بالوسطى، وحرّكها، أمّا إذا أصبناه؛ انفلت وحشًا، يوزّع أحجاره على أسطح الأكواخ، وعلى الأفنية، فيخرج الرجالُ، وتطلُّ النساءُ، والكلُّ يكيلُ لنا الشتائم، أمَّا هو فيكون قد انطلق في هربِه المعهود.

تتبعته يومًا في الشمس، استدار، وحدّق، فرأيتُ حدقتيه نقطتي دم، وكفَّه اليمنى ترتفع؛ ليغرز فيها أسنانه.. تراجعتُ أنا، ودخلت كوخنا، لكن سرعان ما أمطرتِ الحجارةُ عنبة فنائنا، ثمَّ تساقطت جوار جدتي النائمة، لحظتها هرولتُ خارجًا إليه، ورأيته يرمقني، قبل أن يفرَّ.

يومها أنا الآخر جننت، واحمرّتْ عيناي،

وكان هو يروغُ في الحارات؛ لأعودَ أراه، وصياحُه يصلني:

- اليوم الحرب والميدان.

[23]

عبد الواحد يمدّ العون إلى فريد شوقي..

كان حبّه لفريد شوقي، أكثر من حبّه لأمّه، وحين نسأله؛ يقول:
- مين أمي؟
ونقطـع طريقنـا الطويلـة سـيرًا علـى الأقـدام، ونحـن نصغـي لحنجرتـه، ولقبضتيـه اللّتيـن تسـدّدان اللّكمـات، ونضحـكُ ملتّذيـن، وهـو ينثنـي؛ ليرفـس.
فـي آخـر جولـةٍ؛ وصلنـا منهكيـن، ومكثنـا نخطـطُ لمغافلـة مدقّـق التذاكـر؛ حتـى نجحنـا، فعبرنـا؛ وقادنـا الشّـعاع.
جلسـنا؛ وبـدأ عبـد الواحـد؛ يقفـز، والمعترضـون مـن حولنـا يزجرونـه.
وبـدأت معركـة المقهـى علـى الشاشـة الوسـيعة؛ وشـرع عبـد الواحـد ينـادي فريـد شـوقي، والحضـور يتلفتـون، وهـو فـي ازديـاد:
- اضرب.. جاءك.. رفع الكرسي.
وعلى محمود المليجي:
- يا كلب.
ولمّـا وقـع فريـد شـوقي، وامتطـاه المليجـي؛ وجـدت عبـد الواحـد فـي الممـرّ؛ يجـري، وهـو يشـهرُ شـفرة حلاقـة، ويصيـحُ مـن بيـن المقاعـد البعيـدة:
- خذ.
والناس تتلفت، وتصيح: يا عمي مين هذا؟

[24]

غزوةُ سعيد وعبيد

لم يتخيل أحد ما كان سيحدثُ حينما مرّ المختارُ بعربةِ الكنافة الشامية.. كنّا في شمس باب كوخنا حين تمتم أبي:

هذا الرجلُ كان أهم بائع كنافة في يافا.

صرّت دواليبُ الخشب على الرمل، وقابلني دولابٌ أخذ ينفردُ عن استقامته، وأنفاس المختار تتقطّع، وهو يدفعُ العربةَ، وينادي:

كنايف.

ثمَّ يُتبعُ بصوت بوقِه: طوط.

وأبي يقول: آه يا زمان.

لم أفهم.. لكنّي كنت أسمع رعدًا في صوتِ أبي، وأرى حريقًا، ومن تنهيداتِه أحسُّ أن شيئًا عظيمًا قبل أن أجيء إلى الدنيا؛ كان حدث.. شيئًا استثناءً مغايرًا للطبيعة،

وقدّرتُ أن خسفًا وقع، وشمسًا تبعثرت.

كان المختار يقترب، وأبي يقول:

هذا الرجلُ؛ كان على أريكةِ حانوته؛ يداعبُ نرجيلته، ويهزّ طربوشه للحسان المتأبطات أذرع الأكابر.

ويزفرُ أبي، وأزفرُ، أفهم أنا، ولا أفهم..

في لحظةٍ جاء سعيد وعبيد.. اقتربا، حتى جاورا العربة..

كانا بسمرةِ الطينِ، نحيفين كغصنين معفّرين..

قيل: مات ذووهم في قصف القرية..

وقيل: ضيعتهم عن أهليهما طريق الهجرة.

قال أبي: من أين لهما ليشتريا الكنافة.

لكنا رأينا عبيد يحمل الصينية، ويجري، وهي على رأسِه، ثمَّ أخذ يصعد سفح التلّة.

وصاح أبي، وصحتُ أنا، وصاحت النسوةُ من على صنبور ماء وكالةِ الغوثِ، وصاحت الدنيا.

لكن عبيد ظل يصعد، وجسدُ المختار من خلفه يتنقل..

بعدها فوجئنا بالصينية الأخرى على رأس سعيدٍ؛ بعد أن هوى مثل طيرٍ، والتقطها، ثمَّ شرع يصعد التلّة المقابلة..

تجمّع الأولاد، وصاحوا:

سعيد وعبيد.

كان الاثنان هناك على تلتي رمالٍ متقابلين، حيثُ لا أحد، على الرمل الأصفر البكر..

وعصافير تأتي من بعيدٍ، لتحلّق فوق رأسيهما، وهما منكبّان، علنا ساعة الظهر الحمراء..

كانا يأكلان متباعدين، وكانا مثل بطلين..

وكنّا تحتهما.. المختارُ، والرجالُ، والأولادُ، والنساء، وكانت الدنيا كلها في حيرة.

انتظرنا صاغرين.. المختار يلهثُ، ونحن نلهثُ..

ونادى المختار: ارميا الفارغ.

ونادى أبي، ونادت الحارة.

ارميا الفارغ.
وفوجئنا بعبيد من فوقنا يصيح:
سلّموا؛ نسلّم.
ضحكنـا، حتـى كدنـا نمـوت، حتـى المختـار ضحـك، واهتـزت بطنـه.. ابتعدنـا عـن شبشـب عبيـد، لكنـه قـال:
أكثر.
زدنـا المسـافة، ونـزل عبيد حـذرًا علـى رأسـه الصينيـة الفارغـة.. اقتـرب حتـى التقـط شبشـبه، ثـمَّ فـرَّ إلـى التلّـة، أمّـا سـعيدٌ فرمانـا بصينيتـه؛ فجاءتنـا تـدور بحافتهـا مثـل سكين..
عـاد المختـار يدفـعُ عربتـه، وعـدتُ أنـا؛ أرقـب تراخـيَ الـدولاب، وأسـمع صريـره المغـادر، وأبـي يشـيعُ المختـار؛ ويقـول: آه يـا زمـان.

[25]

عرشي الصقيل..

الليلــةُ تناسـخ القلـمُ دلاءً، ونثــرت حروفــيُ علــى الرمــلِ؛ فأنبّــتُ زهــورًا، وعصافيــر..

كانــت العصافيــرُ تأتــي هامتــي، وتــروح.. والبتــلاتُ ترمقنــي بغمــوض..

الليلــةُ كنــتُ ســاحرًا فــي دنيــا يبــاب.. خطــوتُ بدلائــي، وأنبــتُ نبتــي.. صحــتُ بفضــول:

مــن أيــن لــك كل هــذا الحضــور، وكيــف أحيــا الفقيــر الأرض المــوات؟

الليلــةُ كنــتُ المغامــرَ، ولــم يكــنْ غيــري.. لــم تكــنْ أنثــى تمــارسُ معــي الهمــسَ؛ فنثــرتُ حرفًــا..

وقلتُ: كوني.

فكانتْ.. جاءتْ مع شهقةٍ كولادةِ سيفٍ.. ووقفتْ ترنو هناك..

لم يكنْ سوانا مع عصافيرِ البوحِ.. وزهرٍ اتسع مداه..

قلــت: هــذه مملكتــك.. وقلــت: هــذا عــرشُ بوحِــي الصقيــل.. أبــوحُ، وتهمسـين.. أبـوحُ، وترقصيـن.. وبحـتُ، وبحـتُ.. حتـى كان مطـرٌ، وجــاءت ريــحٌ شــفيفةٌ بــلا صقيــع..

الليلـةُ، لـم أنثـر حرفًـا للرصـاص.. لـم أخلـقُ نـارًا.. ولـم يكـنْ ثمـة ذئــاب تمــارسُ قربنــا النُــواح..

الليلـةُ، كنـتُ فقـط فـارسَ نثـرٍ.. نثـرتُ. ونثـرتُ.. وكانـتْ تصحبني، مـع ضـحـكاتٍ تشـبهُ حـدَّ الزغاريـد ...

كانت تقولُ: ما أجمل فنّ البوح.

وتظلُّ تضحكُ...

الليلـةُ، لـم يكـن بصحبتـي بشـرٌ، ولـم يكـن شـيطانٌ، فقـط كان هنـاك مـلاكٌ يضحـكُ، وعصافيـر صنعتُهـا، وبتـلاتٌ اسـتجابتْ؛ فتطاولـتْ فـي الضحـكِ، وتمايلـت فـي الريـحِ.

[26]

ميتتي الأخيرة..

رمقتُـه، ورمقنـي، وأطلقـتُ هتافـي، هـو انثنـى، أطلـق رصاصتـه، وخمنتُـه ابتسـم..
سـمعتُ -وأنـا أتدحـرجُ- اللغـط، ورأيـتُ غيمـةً فوقـي ثقيلـة، ثـمَّ غبـتُ فـي قعـرٍ سـحيق.. صحـوتُ علـى أكتـافِ رَهْـطٍ، ورأيـتُ حفرتـي، وجلجلـت ضحكتـي..
كنـتُ نقطـةَ ضـوء، ثـمَّ تمـددتُ شـعاعًا، مـن فـوق جدتـي، التـي كانـت جـوار شـاهدِ قبـر أمّـي؛ تصيـح.
صعـدتُ سـهمًا فـي الأفـقِ، وحلَّقـتُ بيـن أضـواءٍ تشـبهني، ودنيـا النـاسِ تصاغـرتْ، وأنـا أعـبُّ فـي عبـابٍ قصـيٍّ، لا تحتـه يابسـةٌ، ولا حولَـه، حتـى اسـتقر بـي المقـام علـى أغصـانِ مُذَّهَبَـة، عليهـا التقيـتُ بجمـوع، هـذا جـدٌّ قديـمٌ مـن سـلالتي، وتلـك صبيّـةٌ كنـتُ سـمعتُ بحكايتهِـا، وذاك، وتلـك، وكانـوا جميعهـم مـن حولـي يصعـدون، حتـى جـاء جـدٌّ أجـدادي القديـم، قـال:
أهلًا بقريبي.
ورأيتُه يضُمُني، ثمَّ يأخذني إلى صندوق.
قال: سأفتحه.
وقال: طال انتظاري.
فعجبتُ أنا، وخمنتُه سيُخرجُ المصباح العجيب.

قلتُ: أو ربما خاتَم سليمان المخبوء.
لكنِّي فوجئتُ برقاقةِ زجاجٍ مموّجةٍ بالياقوتِ، توسطها بإصبعه:
من هنا كنتُ أمرّ على حصاني.
وقـال، وقـال، حتـى انتهـى بـي إلـى ذات النقطـة، التـي كان عليهـا مقتلـي.
قال: هنا كنتُ أرعى إبلي..
ثمَّ ازدرد ريقه، وهو يكملُ:
بضربةِ سيفٍ هنا لقيتُ مصرعي.
وجـنَّ جنونـي، وعـادت إلـيَّ عينـا ذيـاك الجنـديّ، ذات الجنـديّ، وعينـاه مـن حديـد، وعـدتُ أطلـقُ الهتـاف، وعـادت الرصاصـةُ ذاتهـا بطيئـةً، تتثنـى لـي، وهـي تأتـي، حتـى استقرت فـي ثقـب صـدري، وتدحرجـتُ، وعـدتُ فـي اللغـطِ؛ أسـمعُ الهتـاف..
جدتـي عاريـة الشـيب عـادت، واسـتطعتُ هـذه المـرةَ أن أتبيـن صيحتهـا، وهـي تسـعى، مـا بيـن قبـري، وقبـر أمّـي:
- واروه يا قومُ جوار ابنتي...
ورأيتُهم يواروني، وأنا من فوقهم؛ كنتُ نقطةَ ضوء تبتسم..

[27]

قتيلُ الليلِ

في إحدى سهراتِنا الخالدة؛ شدّني انعكاسُ ضَوْءِ القمر على صفحاتِ بطونِ القبور، حتى أصابني خفُوتُهُ بالثمَلِ، فآثرتُ التوَحدَ، والتنعمَ بصفوِ ليلةٍ هادئة، ولكي أتخلصَ من رفقتي؛ شرعتُ أروي حكايةَ القطّةِ مع جدتي، وكيف تخطفتْ زغاليلَ الفراخِ في العلن.

قلتُ: لاحقتْها جدتي؛ فقفزتْ القطّةُ، ومن فوقِ الجدارِ تكلّمتْ، وبعربيّة فصحى، توعدتْ جدّتي.

قبل أن أكملَ؛ تململُوا، ووقفوا، أوّلُهم عن آخرِهم، ثمَّ انسلّوا، تاركينَ الرملَ الباردَ، وأنا المبتسمُ، الهانئُ، منشرحُ الصدر بما تركوه، وقد بدَتْ المقبرةُ؛ تخلُبُ بحسنِ صمتِها الألباب.

تمدّدتُ بجلبابي الأبيضِ مثلُ ملاكٍ؛ يعانقُ القمرَ، وحدّقْتُ مُبحرًا في صَفْوِ السّماء، وحلّقتُ إلى أعالٍ، من غيرِ منغّصٍ، ولا رقيبٍ، حتى ثمُلتُ، ودبَّ بيَ الخَدَرُ، واستدرتُ، وتقلبتُ، وأطلقتُ لروحي العنان، وغبتُ في سَفرةٍ، لم أدرِ؛ كم طالت، إلى أن صحوتُ على صيحةٍ جواري:

- قتيل!

وانزاح الجَفنُ عن الجَفنِ، وعبس جبيني، وقد رمقتُ رجلًا على بعد أمتارٍ؛ يتخبطُ، وبيدِه فانوسُ إضاءةٍ؛ يتأرجحُ.

قلتُ:

- أحمقُ متطفل.

ثمّ دقّقتُ؛ فإذ بثُلّةِ رجالٍ من خلفِه، حملوا جثةَ صغيرٍ، جاؤوا يوارونها.

ورأيتُهم يتلاطمون، وسمعتُهم يثغون مثلُ صغارِ ماعزٍ، وزاد سَخَطِي، فقمتُ؛ فإذ بهم يهرولون، ويتعثرون بالقبور، تاركين صغيرَهم ملقىً قربَ نبتةٍ، فصرتُ لحظتَها بهم أصيحُ:

يا.. قوم!

والقومُ يجري، فقمتُ، وشرعتُ أنا الآخرُ أجري معاكسًا، قبل أن يتكشفَ أمري.

وكم -من بعدِها- كانت دهشتي، وأنا أتسمّعُ أمي، ثمّ جيراني، ومن بعدِ يومٍ أهل البلدةِ كلَّهم؛ وهم يروون حكايةَ شيطانِ المقبرةِ، الذي يظهرُ في الليلِ، ليمتطيَ القبورَ، وبمخلبِه يحفرُها، ويتخطفُ صغارَ الموتى.

[28]

ذهول

أذهلني المفكّرُ دومًا، كلما أسهب في شرح علاقةِ النتيجةِ بالسبب، وكلما رمقني بعينٍ، وزمّ أخرى. أذهلني بغليونِه الثقيل، وبمنكشه الرفيع، وهو يحركُ التبغَ كلما انطفأ، ويقدحُ نار ولاعته، ليرشقني بسحابةٍ جديدةٍ من دخان التوباكا الكثيف، لستُ أدري إذا ما كان المفكّر تقصّد إذهالي، لكنّه كان علي أي حالٍ مذهلًا، يقلبني أمامه، وهو يُمطرُ عينيّ بالكلام، ويحكي في أيّ مسألة، كان يأتي بالكلام من مخلاةِ عقله المخبأة، أيّ مسألة:

من تحرير البلاد، إلى مشكلة قمامة حيّنا المتناثرة.

وأنا أروحُ، أحلّق في فضاءاتٍ بلا منتهى، أرى قبح الآخرين، وخراب العقول، وكيف أنَّ الحلول تضيع، ما دامتِ الناسُ لم تسجدْ بعدُ على مصطبة المفكّر المقدسة.

وعندما لبس المفكّرُ بذلته الأولى؛ رأيتُه يتنقلُ على الطريق، فهرولتُ مباركًا، قلت:

مباركة البذلة يا رفيق.

فمنحني بسمةً، وهزّةً من صلعته، ووقفتُ أتتبع خطوه الرشيق، وأنا المنذهلُ الدائمُ بجمالِه، الذاهلُ عمّا سواه، حتى جاء ذاك اليوم، حينما صحوت في ذاك القبوِّ، وأنا أُسحبُ مقيدًا، يومها صفعني ذاك الضابطُ بكفِه الثقيلة، وفي الدهليزِ رأيتُ المفكّر قد شحب، بكى المفكّرُ، وقهقه الضابط، أدلى المفكّرُ بشهادةٍ تدينني، ودهشتي زادت وأنا أحاكمُ بتهمةِ الذهول..

[29]

أخلاط

تناثـرت بنايـاتُ المدرسـة، وتطايـر النـاسُ، واختلـط اللحـمُ باللحـمِ، وكلّ شـيءٍ صـار عجينًـا..

احتار القائمون؛ فقدّروا أوزان المفقودين تقديرًا.

ذهبتْ لاستلامِ طفلها، فمنحوها كيسًا، وأوقفها الشكُّ، فجثت..

فتحـت الربـاط؛ فلـم يكـن رأسٌ، بـل ثـلاثُ أذرعٍ، وبقايـا مـن سـاق، مـع أمعـاءٍ، وعظـمٍ، ولحـمٍ كثيـر.

تركتْ الكيس؛ وكانوا واجمين، وهي تقول:

- ولدي هناك..

وسبابتها إلى السماءِ؛ تشير على نقطةٍ معينة.

[30]

ماعز

من على حشيةٍ مخرّقة؛ عابث علبة تبغه، وعيناهُ تمسحان مارة الطريق.
تفرس، وأطلق خياله، فيعبسُ تارةً، وتارةً يبتسم:
هذا بوجهِ كلبٍ..
وذاك حسر الخدين، وأعلى الصدغين، وأطلق لحيةً شهباء، مع شاربين تدليا؛ فغدا سبعًا فقد زمانه.
وضحك صمتًا.
وضحك جهرًا لعجيزةٍ تعلّقت، وترنّحتْ مثل قفة.
ولكعبين اسودّا، ثمّ تغضنا، فبانا باذنجان تقلّب على نار.
ومرّ رأسٌ، وجسد؛ رآهما لا يستقيمان.
ومُرتفِعٌ نحيفٌ، بوجهِ ديكٍ، احتدّ فيه أنفٌ كسكين، ورآه منقارًا؛ ينقرُ صلعاتِ المارين، وازداد؛ فرأى المنقورين من تحتِ الأنفِ؛ يتدافعون، ويفركون.
وعلى هذا قضى يومه، والمارة يعبرون، حتى باغته رجلٌ، انهمر:
- عبد الغفور؟
- لا.

- ظننتك والله عبد الغفور، فهو يشبهك.

- يشبهني؟

- جدًا، رأسه رأسُ ماعز.

- .. ماعز؟

- نعم. وشفتاه أيضًا ذات شفتيك..

ومصّ سيجارته، وحدّق في الواقف:

- .. شفتاي؟

- نعم.. شفتا ماعزٍ، خاصة السفلى.

- .. السفلى؟

- نعم. متدلية جدًا، ومشرومة؛ كشفةِ عبد الغفور.

مصّ لفافته، ونفث سحابةً، وسأل وهو يحدّق:

- جدًا؟

[31]

على جناح طير الوعد..

يهوي الحالمُ في ليلِ المخيمِ البهيم، يستدعي جناحَه، ثمّ يقبضُ على لجام، ليصعدَ الريح.. يستحمَّ في حُزم الشمسِ، وتحته نجيماتٌ ضاحكات، وكويكباتٌ تشير..

وتزفُّ الحالمَ أجراسٌ، ويبتسمُ لسعدِه الآتي، وهو من عالٍ يواتي الديار.. ينسابُ مثل شهابٍ، تاركا حراسَ الحدودِ في الغرابة، لا تنفعهم حصونهم، ولا صيحاتُهم المتأخرة، وما رشقوه من صليات..

والحالمُ سهمٌ محموم، يستنشقُ من قبلتِهِ الطِيْب، ويملأُ رئتيهِ بشذا الحقول، وتأتيه أشجارُ كرمٍ، وشذا برتقالٍ يتصاعد في غيمات، والغيماتُ عرائسُ؛ يتشكلن في ثيابِ زفافٍ..

يحلّقُ الحالمُ مع طيرِه، على ذات الطريق؛ التي عبرها ليلة التهجير، ويستعيدُ نحيب النسوة من خلفِ الأحمالِ، ومن على أكتافهن بكاءُ الصغار، تطعنهُ عيون الكهول، وتترنّحُ سيقانُ الشيوخِ على عصي البوص...

يظلَّ الحالمُ على هذا؛ ودمعُهُ يفيض، حتى يأتيه مدخلُ مجدل عسقلان، ويشتدُّ الأمرُ، وقد هبَّت من خلفه جيوش، ويتطايرُ من تيهٍ إلى تيه، حتى يلامسَ أسطح البيوت...

يغامـرُ؛ فينـزلُ، أو يـكاد، والسـماءُ فـي عربـدةٍ، والأرضُ تكـزّ، ويمـرُّ مثـل طلقـةٍ، إلـى رأسِ نخلـةٍ؛ تعتلـي سـطح بيـتٍ قريـب، يداعبُـه السعفُ؛ ويُحـدّقُ هـو، ويـكاد يقتلـه التحديـق، والنخلـةُ تلقيـهِ إلـى جـدار؛ يتمـرغُ علـى طوبِـه مثـل فراشـةٍ متجرئـة...
جدُّهُ يتمطّـى مـن حفـرة، ثـمّ يقـوم.. يخطـو، ليعـاودَ جـرارَ الفخـار، والجدَّةُ أيضًـا تعـودُ، ويصيـحُ الحالـمُ: جدتـي.
والمجلوبون في الفناء يعوون: عربي!
يطيـرُ الحالـمُ، يدفعـه طيـرُهُ مـن ميـدانٍ إلـى زقـاق، ومـن جـدارٍ يعرفـه إلـى جـدار... يرغـبُ بلقـاءِ المسـجدِ المملوكـيِّ؛ فيزحـفُ علـى بابـه خببًـا؛ حتـى يشـهقَ مثـل عصفـورٍ فقـد الضـوء، علـى واجهـة المسـجدِ، التـي قُسّـمت محـلاتٍ لبيـع الخمـور.
ينـادي الحالـمُ الله، وهـو يقفـزُ؛ يتحسـسُ زخرفـةَ صحـن المسـجد؛ وينـادي فرسـان التاريـخ؛ فيـردُّ الخـرابُ رجـعَ صوتِـه، وتطـلّ عناكـبُ أعشـاشٍ، ويبكـي الحالـم؛ يبكـي، ويحـاول العثـور علـى آخـر أنفـاس، وتستحضـرَ أذنـاهُ دقّ نواقيـس، وشـدوَ مزاميـر، ونـور شـمسٍ يواتيـه، يمطـرهُ بـآلافٍ من طيـورٍ، مناقيرهـا تُلـوّحُ بالمفاتيح.

[32]

زلابيا، وحمص مقلي، وحنتوت..

في ليالي الشتاء البعيدة..
وجدتي تروي حكاية القرية السعيدة، التي أمطرتها الدنيّا زلابيا؛ أمدّ أنا عنقي، لأتصور شكل الزلابيا، وأخرجُ لساني، لأتذوق قَطرها، لكنّ جدتي تقصفُ فرحتنا؛ وتُعرّج إلى دهاليز حكاية (أبو رجل مسلوخة) ليشتّ خيالي؛ ويزودني بإضافاتٍ أشدّ، وأعتى لشكل ساقه، ولخطوه المتنافر القادم.
فإذا ما دفنتُ رأسي في بطانيّة الأمم المتحدة؛، صار لزامًا -كالعادة- أن أقوم؛ لأذهب إلى ذاك الحانوت البعيد، وكنتُ أنا الملبي الساعي، لجلب ما يحتاجون، من سكرٍ، أو شاي، أو حتى علبة ثقاب.
ظلمة كوخنا تسلمني لظلمة الزقاق، ويبتلعني بئرُ الظلام، ويأتي أبو رجل مسلوخة مهرولًا، يترصدني هناك.
كانت تصدمني جدران الأكواخ، ويصفعُ وجهي صفيحُ نوافذ مخيمنا الواطئة المشرعة للظلام.. وتلحقُ بمؤخرتي الكلاب.. وأعودُ؛ لأغفو، وثغري اللاهث يبحث عن الزلابيا التي لا تأتي من السماء.

***

فـي الغسـق كنّـا نحمِـل بعضنـا.. نتماسـك بـالأذرع، الظهـر إلـى الظهـر، ننثنـي بالتوالـي، وحـوار لعبتنـا يـدور:

شفت القمر.. شفته.. شو تحته حمص مقلي.. انزل نقي.

مشكلتنا كانت من يحمل الحنتوت.

مـرّةً تهربت منـه؛ فهاجمنـي، وتحـت ثقلـه اضطـررت لثقب بطنـه السـمين بسـكين السـمكة الصغيـر، ولمّـا رأيـت دمـه؛ هربـتُ، وفـي كحـل الليـلِ؛ قبـض علـيّ.

اسـمُ صاحبنـا حنتـوت ذاك؛ كان مثـار سـخرية جمعنـا، ومصـدر مشـاكلنا المفاجئـة.

بعدهـا بسـنوات -وقـد كنـا علـى وشـك البلـوغ- عبـر الصهاينـة مـا تبقـى مـن البـلاد، ورجالنـا -مـن المحيـط إلـى الخليـجِ- جلسـوا يلطمـون كمـا النسـاء.

***

فـي ميـدان فلسـطين الـذي توسـط غـزة، رقبـتُ الحنتـوت، وهـو يعـرض علـى الخواجـات القادميـن مسـح سـياراتهم، وبالقـرب مـن البنـك العربـيّ؛ كان الصّبيـة الذيـن كبـروا، يطوفـون علـى الزائريـن الجـدد ببضاعتهـم الخفيفـة.

جـوار البنـك كانـت تأتـي الرصيـف -فـي ذات الميعـاد- حافلـةٌ خضـراء، وتتوقـف، ورأيـتُ البعـض يصعدهـا؛ لتغـادر بهـم إلـى جسـر نهـر الأردن.

كان الحنتـوت كل يـوم يرتقـي درجـات مدخـل الحافلـة، ويناديـني، ثـمّ ينـزل إلـيَّ مستـاءً.

في يومٍ.. انطلقت الحافلة، وصوته ينادي.
ذهب الحنتوت إلى شرق الأردن، هاجر ببطنه الكبيرة، والغضّة الطريّة، ولمّا يشتدّ عوده، هاجر، وتركني هناك على الرصيف ذاهلًا.

***

جاء الحنتوت ونحن كهول، قلت أذهب لأسلّم، فهو صاحبُ حقٌّ علينا، وواجب... كان
-رغم نجوم كتفيه- لم يزل رثًّا، سمينًا، شعره طائرٌ من غير ريح.
لم يعرفني الحنتوت، قلت: إيه... سنين طويلة، تساقط شعرنا، وما تبقى منه شاب.
لكنّ الحنتوت سمع اسمي؛ ولمّا يذكرني، عجبت أكثر حين سألني:
أظن التقينا من قبل؟
قلت: أين؟
قال: أظن في سجن غزة المركزيّ؟
لحظنها جنّ جنوني، وهتفت:
أتعرف سجن غزة يا حنتوت؟

[33]

جواد أبيض

بعدَ الجـري خلـف نعـوشِ المقتوليـن؛ قـررتُ الفـوزَ بسـاعةِ غفلـة، أقفلُ فيهـا عقلـي، وأطفـئ حيـرةَ عينـيَّ، سـاعةِ سفرٍ فـي بحـرِ النـومِ المسروق.

تقاتـل بعضـي مـع بعضـي، وتلاطمـتُ، ولـفّ سـريري.. لـفَّ بطيئًا، ثـمّ دار كتـرس مسـنون، واشـتعلتْ مخدتـي، ثـمّ اسـتعرتْ، وتمنيـتُ القفـزَ، لكنـي كنـت جثـةً ممتثلـةً للنـارِ، حلقـي ملجـومٌ، لا يصـرخُ، ونـاري تأكلُنـي.

أنا رمادٌ هشٌّ، وعقلٌ نشِطٌ في تابوت.

قلت: أهـزُّ رمادي هزّةً، تسقطُ عقلي.

وقلت: فرصـةُ العمرِ تأتيني في آخرَ لحظاتِ العمرِ.

عزمتُ، واستقويتُ باللهِ، ثـمّ بأولياءِ الدهـرِ.

وقلت: أصيحُ؛ فأفقـشُ غلافـيَ.

وفعلـتُ، فتراقصـتْ صيحتـي كذُبالـةٍ صامتة، وأرسـل جوفـي دمعـًا يغلـي.

لحظــتها جــاءَ؛ كـــان غبشًــا فــي البـدءِ، يـكادُ يلامسُـني، فارعًـا يشـهرُ -ذاتَ قامتِــهـ وعينيـه الضيقتيـن، وكنـزةً ناعمـةً مـن الحريـرِ الأبيضِ مزمزمـةَ الظــهرِ، وكعادتــه تبسـم:

وانفرج حلقي:

- أنتَ ميتٌ.
فنطق من ذاتِ الشفتينِ:
- وهل الشهداءُ يموتونَ؟
وصحت: أَطفئْ ناري.
فأطفأْني.
وتداركتُ، وأنا أتفحصُه:
لكن آخرَ مـرةٍ كنت قطـعًا.
وقلت: خـرَجتْ من بطنِكَ كليتاك، ورأسُكَ على الإسفلتِ تدحرج.
وقلتُ: يدُكَ هذه، يدُكَ كانت مرمية.
فرشقني بشذاهُ، وعبقَ الشارعُ.
وهزَّ ذراعيه، وشتمَ شَيطاني.
قلت: حدثني يا رجـل.
ورجف وميضٌ طارئٌ؛ وهو يشرح:
بعـد الانفجـارِ تناثـرتُ، فنظـرتُ مـن عينـيِّ رأسـي إلـى أعضائـي المتناثـرةِ، وتكاملـتُ.
وقال: ثمّ استدعتني الشمسُ.
وهمستُ أنا: وكومةُ اللحمِ التي دفناها؟
هزَّ كتفيهِ، وتصبّبَ عرقِي، وهو يرفعُ كَنزته.
- صورة فقط.. صورة.
ورأيـتُ لحمَـه بـلا خـدشٍ، ونـورًا لمـعَ محـلَ التقطيـعِ، ففركـتُ مقلتـيَّ، وهرولـتُ خلفَـه، فـإذا بـي علـى ربـوةٍ خضـراءَ امتطاهـا جـوادٌ أبيضُ، لـم أرَ مثلَـهُ مـن قبلُ ولا مـن بعدُ، واقتـربَ الجـوادُ، بنظـرةٍ ناعمـةٍ مـن صاحبـي، فصرخـتُ:

- خذني.
وأكملتُ جاريًا:
- خذني.
وانفرد للجوادِ جناحانِ ثلجيانِ، وصهلَ؛ كما لم يصهل جوادُ، وصاحبي نظر وقال:
- وهل أمسكتُم بواضعِ العبوةِ؟
فاقشعرّ بدني، وانخفض جفناي.
قال: عُدْ لأزقتِنا وقبّلها باسمي.
فصحتُ: تتوقُ إليها؟
وصعد الجوادُ بفارسِهِ، وأنا أرمقهما، ولمّا اخترقا غيمةً، ظللتهُما؛ لاحقتهما
من على سريري المنطلقِ كترسٍ مسنونٍ، أسرع من البرق.

[34]

تابوت

توسط الطريق، وصار يشتمُ؛ وهو يضربُ خلفَه: المدراءَ العامين، والبطاطا، والباميـاء، والعربَ، واليهود.

تزاحمتْ من حوله العربات، وسائقنا تمتم ضاربًا المقود: دنيا.

احتشد الخلقُ على الممزّقِ المنفوش.. هذا الوجه فيه بقايا أعرفها.. شقّ الشارعَ، وجوفُه يصرخُ، وتنحّت العربات في موجتين،

وضربتُ جبهتي، وصرختُ: صاحبي.

فارتجفَ مجاوري، ورمقني السائقُ، وقال في المرآة:

يومنا معثر.

قلت: أنزلني.

ركضتُ؛ فلم أجده.

أسرعتُ داخل التفرعات.. جلتُ في السّوق، حتى أسندني جدار، أضعته، لكنّه ظلّ يُرسلُ عينيه، ويصيحُ، ويشتمُ، وهو يضرب جسده، والهواء..

ورأيتُ السّجان كوهين؛ يهوي عليه، ويصيح: كُل. كُل.

ودفع كوهين الطبق بحذائه سابًّا دينه.

بعد أيامٍ قصدتُ مخيمه؛ فصدمني حطامُ بيته.

قالوا:

قبل خروجهم هرسوه.

عدتُ أجرّ ساقيَّ، وظلّ هو يلاحقني.. يجأر، ويلاحقني. وأنا أعودُ إلى بيته المهشوم؛ إلى أن خرج من زقاقٍ، وهو يسحب خيطًا، انتهى بلعبةٍ سوداءَ على شكل تابوت. توقف قليلًا، وحملق، ثمّ تجاوزني، والتابوتُ الصغيرُ خلفه؛ يهتزّ.

[35]

رجل منطقي..

ما حاجتي لسيارة؟

ما دامت ساقاي تعملان، حتى وإن زوجتي هجرتني، ولو ربٌّ عملي طردني؛ لتأخري كلّ يومٍ لبضع ساعات، وما حاجتي لهاتفٍ ثابتٍ، أو آخر نقّال؟ ووجودهما يرمي إلى الكسل، ويمنعُ المشي إلى صاحب الشأن، أولم يَحُلْ وجودهما عن رؤية خلق الله؟

ثم.. ذاك التلفاز، وأيضًا المذياع؛ يريدونني أمامهما أتمدد، وكلّ الأخبار في نهاية الأمر تأتيني، وما عمل الناس خلف الحائط سوى الحكي، ومضغ الكلام، كلّ هذه الكماليات تركتها بإرادتي، حتى منظف الأسنان استبدلته منذ دهرٍ بأصابعي، والمشطُ رميته، فالله أراحني مبكرًا، وكان ذلك من رزق الحياة، أتصورُ أحيانًا لو ابتليتُ بشَعرٍ؛ ألن أضطر لشراء الصابون، أهه.. ثمّ ما حاجتي لأنواعٍ كثيرةٍ من الطعام؟

قلْ لي، ما دمتُ أنا في خرقةِ بدني على فرشتي، لا أحرق دهونًا، ولا سعرات، حتى هذه الخرقةُ الممزقة؛ أحسّ بأنها ترفٌ، والله يبغضُ المترفين، وفوق هذا وذاك، يقولون عني ما

لـم يقـل عـن أشـعب فـي البخـل، سـيطيب لهـم حالـي؛ لـو خسـرت فـي ترفهم مالـي، وقعدتُ بينهـم ملومًـا محسـورًا.. ثـمَّ ذاك الطبيـبُ الكافـرُ الـذي تلاعـب بمباضعـه فـي عينـي، هـل جننـتُ لأصدقـه أنهمـا محتاجتـان لنظّـارات؟

وافرحتـاه.. وأنـا كـي أرضيـه؛ أعلّـقُ زجاجتيـن علـى أرنبـة أنفـي، مـا حاجتـي لـكلّ هـذا البـلاء؟ وكفّـاي معـي، ولا زالتـا قادرتيـن علـى تحسـس الأرض، ومـن حيـنٍ لآخـر تحومـان علـى فرشـتي، تجسّـان تلـك النقطـة حيـث موضـع مدخراتـي.

[36]

عودة عبد الحليم

الليلـة وصـل عبـد الحليـم حافظ بلحمِـه، وبعظمِـه، بعينيـه المحدقتين، وبغرتِـه المتطايـرة، كان ممتـدًّا أكثـر، معتـدلًا، بصحـةٍ متعافيـة، جاءنـي وأنـا متكـئٌ علـى الرملِ، وكان واقفًـا، لا يطـوّح بيديـه، ولا يغنّـي، فقط كان يحـدّق بنظـرات أسـى، قلـتُ لمرافقتـي الشـابة:

هذا عبد الحليم..

وكان اهتمامها به محدودًا، ووجدتها لم تزل تهتم برفقتي.

طفحتُ أسىً، وأنا أرمقُ ذاكَ الفذّ.

ثمَّ قلتُ:

ألا تذكر ما كان؟

فهزَّ رأسه المعهود، وقال بصوتٍ كسير:

بلى.

كان اللقـاءُ فـي ذاك الزقـاق المنتهـي بفرجـة رمليّـة متسـعة، تـؤدي إلـى سـوق المخيـم.. مخيـم جباليـا بالـذات.

قلت: أشتري لك شيئًا من سوقِنا؟

لم يَرُدَّ، ونظرتُه اتسعت، فلكزتُ مرافقتي البلهاء:

هذا الرجلُ هو عبد الحليم.

فلـم تبـالِ، وظلـت عيناهـا بـي معلقتيـن، أمّـا هـو فظـلَّ إرثًـا قديمًـا، عينـاهُ محدّقتـان، وفجـأة رمقنـي، وهـو ينـادي:

خلي السلاح صاحي

صحتُ مع دمعتين

لو نامتِ الدنيا... صحيت مع سلاحي

ثمَّ صحتُ:

لكن ما الذي أتى بك إلى هنا؟

وتمتم الرجلُ من بعد صمت:

أنا هنا لأكتبَ ما حصل..

قلتُ:

صرتَ مهتمًا بالتأليف!

وكان لا يغني، كان فقط إرثًا فاتنًا، وصَل.

[37]

مختبر

كان علــى بــاب بيتِــه؛ يزجــي الوقــت فــي فتــلِ شــاربيه، ومداعبــة العلبــةِ الملقــاة علــى أريكتِــه المنتّشــة.

هو لا يُدخّن؛ لكنّه يتناولها؛ ليقول:

- سيجارة.

ويتفحصُ لهفةَ القادم، ويتتبعُ يده الراجفة.

يهزُّ رأسه؛ وهو يتمتم:

الصغيرُ.. صغير.

صــارت هوايتــه فــي الزقــاق.. زقــاق المصيــدة، راقــت لــه لعبــةُ انتظــار الكبــار الذيــن يرتفعــون، ويهبطــون، وهــم يلاحقــون أصابعــه بالســيجارةِ الســاحرة..

لم يستعصِ أحد، لم يرفعْ أنفه أحد، ولم يقل أحدٌ: لا.

الوجوهُ تأتي علبته.. وتروح، يأخذون، ويقولون: شكرًا.

وهو يقولُ:

- الصغيرُ صغير.

اليوم نفدت سجائرُ علبتِه إلا من

ســيجارةٍ واحــدة.. ظلّــت وحيــدةً مســتيقظة، أقفــل عليهــا مبتســمًا، وقــال: أنــتِ برجــل.

قال: لكِ فارسُك يا حلوتي قبيل المغرب، ثمَّ نقوم.

علــى هــذا ظــلَّ؛ يُعلــي طرفــي شــاربيه؛ كلمــا هويــا، ويعيدهمــا

شـارة نصـرٍ؛ إلـى أن هبـط أحدهمـا.. تفرسـه.. حدّثـه قليـلًا.. مازحـه قليـلًا.. ثـم امتـدت ذراعـه إلـى علبتـه المهملـة:

- سيجارة.

رفـضَ الرجـل؛ فألـحَّ عليـه.. أقسـم.. قـام.. قعـد.. لكنـه ظـلَّ صُلبًـا مسـتكبرًا.

أعـاد المحاولـة.. تشـابكت الأيـادي.. تناثـرت العبـارات.. جُـنّ جنونـه.. رجـاه.. شـدّد، ولمّـا يئـس؛ رمـى العلبـة فـي عجـب.

اسـترخى جـواره.. أغمـض عينيـه.. قـال بصـوتِ قـاضٍ يُصـدرُ حُكمًـا:

- كبيرٌ أنتَ، وربّ الناس.

ولمّا غادره الرجل؛ شهق، عندما فتح علبته، ووجدها فارغة..

[38]

وسيلةُ عبور..

سألني: قصيرٌ كشربة شهدٍ.. ثقيلٌ مديدٌ بلا منتهى؟

فأسرعتُ: العمرُ.

فقال: أصبتَ وفزتَ، فلك أنْ تتمنى.

قلتُ: طِرْ بي، وحلّقْ.

فانحنى فاردًا جناحينِ، وأصعدني؛ حتى صار سهمًا مُشعًا.

قلت: أين؟

ورأيته مع كلّ خَفقةِ طَرْفٍ؛ يحطُّ على أجراسِ مُدنٍ؛ خمنتُها عواصمَ أوروبا، وقد شخصْتُها، رغم جهلي المسبقِ.

وطاف، وطفتُ، وقد كنتُ ذكرَ حَجَلٍ يتنقلُ بين جناحيه، وهو يطلِقُ صفيرًا لكُلِّ نَقلة، ما بين كلِّ لمحةِ طرفٍ، ولمحَة، حتى استقامَ فجأة، وهبطَ على مآذن أعلمُها علمَ اليقين، وتبينتُها تبيّن الواثقين، وصحتُ:

- القدس..

فضحك الجنيُّ من تحتي، وقال:

- تركتها لآخر تطوافنا، وأعلمُ توقك..

قلتُ: منعوني عن بلاطِها، ومنذ عقودٍ لم أطأها.

وقلتُ: أنزلني. فأنزلني، وهرولتُ تاركه، حتى عبرتُ بوابة باب العمود، وشممتُ رائحة سوقها المعقود؛ من قبلِ أنْ أصله،

وفي هرولتي؛ لاحظتُ عيونًا محدّقةً، ترمقُ سحنتي مستنكرة، فتجاهلتُها، وانحنيتُ على طِشتِ بائعة تينٍ، وقد خمنتُها للحظةٍ أمّي المغادرة، وصحتُ: أمِّي!

ولامستُ عينيها، ثمَّ تقهقرتُ مترنحًا، أخزِّنُ ما أراه، ولمّا تتبعتِ العيونُ جرأتي، ولاحقتني أرجلٌ، وهرولتْ سيقانُ؛ ثمَّ امتدت قصبة رشاش؛ وجدتني طيرَ حَجلٍ، أعودُ على ذاتِ الجناح، والجنِّيُّ يقولُ:

نسيتَ نفسَك؟

وعاد سهمًا انطفأ، يهرولُ في ليلٍ أكحل، حتى صار دابةً لا تصلح، وقد هوى في ذاتِ البقعةِ من مخيمِ غزة، وهو يقول: انزلْ.. كفاك.

[39]

سيفُ عنترة

أطبق الاختناقُ؛ فهربتُ إلى جمهرةٍ، احتشدتْ حول سُوقيّ، تلوّحُ يداه:

قميص.. قميص بشيقل.. شيقلان.

ويُحذَفُ القميصُ، وتتلقفه يدٌ.

وغامتْ عينايّ، والدّلّالُ يجأرُ، والناسُ أصنامٌ؛ تحملّق في خرقٍ، يقلّبها الهمجيُّ، ويلبسُها، وبها يدورُ كعارضِ أزياء. وأترنحُ أنا، وأميلُ، وأسقطُ؛ فأغيبُ في بئرٍ سيقانٍ؛ امتلأ قمصانًا تتناثرُ، وسراويلَ تتطاير.

ورأيتُ خدّيّ الهمجيّ يُنبتانِ ذؤابتين معقوصتين، ورأسَه اعتمرتْ قبّعةً مستديرةً سوداء، وقبضته أشهرت سيفًا، ولوّحن:

سيف عنترة.

وهاجت الأصنامُ:

سيف عنترة!

والهمجيُّ نادى:

سيفُ عنترة.

وأنا كنتُ على حدّ السيفِ؛ أتشممه؛ عندما صوتٌ ارتفع:

شيقلان.

ويا عجبي؛ حين رأيته أقصى الحشدِ بشعرِه المُفَلفلِ مجلوبًا؛ يسكُبُ الدمع على خجلٍ، وقد رنَتْ عيناه الواسعتانِ، فاقشعرّ

بدنـي، وسـكبْتُ دَمًـا، وكـدتُ أحادثـه، وكـدتُ ألثمـه، وارتفعـتْ يـدٌ:
ثلاثـة.
وضرب الهمجيُّ بالسيفِ:
ثلاثة.
وصرختُ:
هذا سيف عنترة يا ناس.
أربعة.
وتراقصـت الذؤابتـانِ، وتطايـرتْ القبّعـةُ، وصـار لعنـقِ العبـدِ حبـلٌ، وكان لـم يـزل نحـوي يرنـو.
وصاح الهمجيُّ:
خمسة.
ونزل، يدبُّ، ووصلَ العبدَ؛ فجَرّه:
السّيفُ، ومعه عنترة.
وصفّقـتْ الأصنــامُ بمـرحٍ، ودار عنتـرةُ، والهمجـيّ يقصفـه بظهـرِ السـيفِ، ويقهقـه، والأصنـامُ تقهقـه.

* الشيقل: العملة الصهيونية حاليًّا

[40]

قهقهة

هزَّ الأجداثَ صوتٌ آمرٌ؛ فقامتْ الأكفانُ من رقادِها.
لم تُطِلْ؛ كلُّ كفنٍ حررَ يديه،
تداعتْ، ولم يتأخرْ كفن.
ساطهم الصَّوتُ؛ فاستجابوا، زحفوا عبرَ الرملِ، من كلّ صوبٍ.
وكان الصوتُ طيرًا تحت الشمسِ يصيحُ:
- لا يتبقى في الباطنِ أحد.
وكانـت الشـمسُ تجـدلُ خيوطهـا، وبكفّهـا تلـوّح، والأكفـانُ حشـود علـى الطّريـق.
والعسكرُ على المنافذِ خُوَذ، وأكعاب منْ حديد.
وكانـت أمـواجُ الهتـافِ تمطـرُ الخـوذَ الـدمَ، والـدمُ يهـوي علـى الرمـلِ الضاحـك.
وضجّ العسكرُ، وهم يهرولون، والشمسُ جذلى قهقهت.
وقهقه الكونُ.
والأرضُ، والسماءُ، وبانت نجوم عزِّ الظهيرة، وقهقهت.
وقهقهتْ الغاباتُ البعيدة، وأطلقت شموعًا مقهقهة..
وحدهم العسكرُ كانوا واجمين.
وحدهم كانوا في عبوسٍ، في حفلِ الدنيا المقهقهة.

[41]

صُرَّة المؤن

كانت تأتي من البعيد، تعبر القارات نحو مخيمنا الصغير.
تستلقي سمينةً في بطونِ السفن، وخزائنِ الطائرات.
وفي مقصورات القطُر الجاريات.
كانت صندوق العجب، خاتم سليمان المقدوح في جحيم الانتظار.
أمي الصّبية تقول:
- هذه المرّة نبيع الصرة
ونصرخ في صحن الدار:
- لا والله ما نبيعها
نتعلق بفم والدنا، فيسعفنا:
- أمّكم تمزح يا أولاد
- هيه.. هيه
وليلتها المخيمُ لا ينام،
يظلُّ ينتفض بانتظار بنطال العيد، وقميص العيد، وحذاء العيد.
وفي النّهار لا يستقبل المعلمون الصغار،
هم يحلقون بعيدًا، وفي زحام أرجل الكبار يختفون،
يتدحرجون عبر الباب، بين الصّرر المنتفخة، الخارجة فوق الرؤوس، صفراء، وحمراء، وخضراء، وأنا عن أمّي أضيع،
في رائحة الزيت والنفط المكرر أضيع،
وجهي يعفره الطحينِ، وأنا أركض؛ لألاحق العربة التي يجرها حمار.

- أين صرتنا يا أمي؟

تشـير إليهـا، فينبشـها عقلـي... أفـرز حصتـي مـن هدايـا الإنجليـز والأمريـكان،

ألهث خلفهـا، ومستكشـفًا أقرصهـا، ثـمَّ علـى تـراب الـدار نبطحهـا، لنـدور حولهـا كأنهـا إلـه.

ندور طائرين، ثمّ عند فتحها نتجهم

يصيح والدايّ:

- يا ليتنا بعناها.

ثمَّ يعودان إلى مراجعة المحتويات،

يُلبسان جسدي

وأنا أصيح:

- هذا جاكيت ستاتي!

يأمراني:

- البس

تضيف أمّي:

- اتق البرد ولو بالجرد

ويلبسان قدميّ

فأصيح:

- هذا حذاء عجوز ميتة!

فيصرخان:

- البس.

أترنـحُ علـى كعـب الغـزال، وأمشــي بالجاكيـت السـتاتي، أمشــي فــي تـراب الـدارِ مثـل ديـكٍ منفـوشٍ، ولا أدري؛ هـل يضحكـون لمظهـري، أم يبكـون.

[42]

فَرَاشَةُ البَوْح

كنتُ هناك أقفُ في الزاويةِ الآسنة، إن أُسقطَ النعاسُ جبهتي؛ ردَّتها حبيباتُ الطلاء، وحيدًا في الصمت، كآلةِ رصدٍ لزحفِ الزمان، أعضائي موزعة.. متباعدة.. رأسي منتصبةٌ في كيس، ذراعاي خلفي موصدتان، ينهبُ دمهما البعوض، قدماي تنتفخان في البعيد، أذناي تغادران؛ تغربلان الصوت الذي يأتي، ويروح، يلامسني متموجًا، ثم يمضي تعذّبهُ الرِّيح. تقول عيناايَ لعتمةِ الكيس: هذا عصرٌ، هذا فجرٌ، والصمتُ يعود، يخالطُه الطنينُ.

كانت أيامًا من صمتٍ وطنين، وأنا الصاغرُ للّدغِ، أمارسُ فنَّ الانتصاب، يسري في دمي خدَري، وتغافلني رأسي، تسقطُ على صفحةِ الجدار، فتدقُّها حبيباته البارزة، أرفعُ قدمًا؛ لأحكَّ الأخرى، ودمي ينزّ في البقعةِ الهائجة.

أيامها عقلي العاملُ قال لي: هذه الحشراتُ جندٌ لهم مجندة، مدربةٌ، تعملُ بدراية، تجاورني، وقبل أن تلدغ؛ تدورُ نِكايةً ما بين كيسي ودمي.

والخدرُ عميق، أطرافي ممالكُ نملٍ، وجلدي قِربة، أنا في الصمتِ أغافلُ جسدي المنتصبَ، وأمضي، عقلي العاملُ يمضي كلّما اشتدّ الأمر..

دروبُ سـجنِ عسـقلان أعرفُهـا، باحـةُ الصّلـبِ الدائريـة، قنـواتُ الصَـرفِ العاريـة التـي تُوقـعُ المسـحوبين، الدهليـزُ الرطـبُ، صَفّـا أبـوابِ الزنازيـن.. مـن هنـاكَ أهـرّبُ عينـيَّ مـن الكيـسِ، عينـاي برفقـةِ عقلـي العامـل، تجتـازُ أبـوابَ الحـراسِ بابًـا، بابًـا، وأصـل البوابـةَ، وأحلّـقُ، أصيـرُ فراشـة دوّخهـا العَطَـنُ، أسـقطُ فـي الدنيـا، خلـف بطـن السـجنِ، جسـدي تبقـى، وهنـا أنـا فراشـةُ ريـح، أتجـاوزُ خطـوَ المجلوبيـن، أصـلُ مـكان السـوق، أمّـي كانـت هنـا.. أبـي كان هنـا.. أعـرفُ الطرقـات، المسـجدَ القديـم، جـدارَه الـذي جعلـوه حوانيـت، أرى الشـعرَ المعقـوص يسـيرُ، تحـت البرانيـط، وأشـمُّ رائحــةَ البــلاطِ، جســدي هنــاك واقــفٌ، لكنــي هنــا.. مــن مقبــرة عسـقلان يصلنـي نـداء جـدي، أدقـق فـي الشـواهد، فـي التواريـخ، فـي أسـماء العائـلات التـي كانـت، أردّد تحيتـي:

سلامًا أيّها العسقلانيون القدماء..

أقولُ فوق قبر جدي كلامًا، حتى يوقفني:

اذهب، وقبّل نخلة الدار.

أعـرفُ الأزقـةَ، المنحنيـات، باحـاتِ لهـوِ الصغـار مـع بـدر السـماء، بيتَنـا الـذي علـى حافـةِ الـوادي، سـقيفةَ حارتنـا مطـرح سـهرة الكبار، أنـا فراشـةٌ علـى بـاب السـقيفةِ، أحلّـقُ، أقطـفُ مـذاقَ الطيـنِ.. أدلـفُ إلـى صحـن السـقيفة، وأطـرح السـلامَ.. جسـدي فـي الزاويـةِ الآسـنة، روحـي فراشـة ضَـوء، لا شـأن لـي بالقدميـن المخدتيـن، بالصمـت، وبالطنيـن، بنـداءاتِ «اعتـرف»،

أنـا روحٌ نشـطة، عقـلٌ عامـل، لا شـأن لـه بمعـدةٍ خاويـة، بقنـواتٍ تُعثرنـي، وأنـا معصـوبٌ، هنـا أصـلُ برشـاقتي نخلـةَ جـدي، بـابَ الـدارِ الـذي لا يصُدُّنـي، الجـدار الـذي شـيّدهُ أبـي فـي قبـر المخيـم، واريـنـاه لمَّـا انطفـأ، جـدي هنـا، أبــي هنـاك، بيـن قبريهمـا سـياجٌ يفصـلُ الأرضَ عـن السـماء، هنـا علـى جـدار الـدار؛ يقـولُ أبـي: جمعَنا ثانيةً الجدار!

أنـا أطيـرُ بوصيـةِ جـدي، ألامـسُ جـذع النخلـة، وأتلمـسُ طريـقَ الـذروة إلـى رؤوسِ السـعفِ!

لا شـأن لـي بجسـدي فـي الزاويـة، لـو جـرُّوه فـوق القنـوات، علـى أرضيـة قبـو التحقيـق، هـو طيـنٌ قـد يعـودُ إلـى عناصـره، أنا فراشـةُ عشـقٍ خالـدة.. هنـاك يعـوون: «اعتـرف» وهنـا أُسـقطُ السـلام علـى السـقيفة، هـم يُجـنُّ جنونـهـم؛ وأنـا علـى ذرى السَـعفِ، أغنـي أغنيـةَ جـدي القديمـة!

[43]

خيطُ القمر

بيتنـا فـي المخيـم تحـت القمـر، والقمـر تفاحـة محترقـة، معلّقـة، خيطٌ رفيـع يربطنـا، نهتـزّ، نهتـزّ، والقمـر جميـل، لكـن لـو انقطـع الخيـط سـنهوي فـي الفـراغ السـحيق.
جاورتنـي علـى الفـراش، مشـدودة معـي إلـى القمـر، أراهـا يغادرهـا الشـحوب، ورديـةَ يغزوهـا الاحتـراق، وأراهـا تفاحـةً، ابنـةً للقمـر، وأنـا الليلـة مشـحون، تتقدمنـي روحـي، ولنـا أرى القمـر يبتهـج.. أنـا رحـى تـدور، والـدوران فـنٌّ يـا قمـر، نصـولُ، ونجـول، فـارس يحـرث، وعـازفٌ يعامـل آلتـه مثـل سـاحر، وخيـط القمـر يـزداد توتـرًا، ويشـدو، يعـزف دوراننـا، دوراننـا نشـيد يـا قمـر.
الليلـة غافلناهـم، ودرنـا، كأننـا لسـنا هنـا، والمخيـم بسـتان، وهـم زالـوا، نحـن فـي بسـتان، وكفـى، نـدور مـع القمـر، ونـذوبُ، ونصـدح بلحـن البسـتان، أنـا العابـر صحـن المحـراب، فيـه أذوب، أنـا الصـادح بنشـيد البسـتان المفقـود.
فـي لحظـة انشـدّ الخيـطُ، وصرنـا كمـن يهـوى، فـي لحظـةٍ داسـت أقـدام علـى السـماء، والأرض والجـدران، والهـواء، والمـاء، واليابسـة، والسـائلة، أقـدامٌ فـوق رأسـي، وصـدري، وقدمـيّ، قبضتْ علـى نشـيدي، وصوتـي، ولهاثـي، وأنفاسـي، عضّـت علـى شـهيقي، وزفيـري، ونبضـي، وضغـط دمـي.. الدنيـا أقـدام، أقـدام تـدق البـاب

بجنـون، وأقـدامٌ تـهـوي علـى الخيـط المشـدود، وأقـدامٌ تـهـرس قرميـد بيتـي، وفـي معدتـي تجـوس.
وكنت مشدودًا من عنق رأسي،
معلّقًا، عاريًا كنت، كما عملني الله.
حملقـوا عجبيـن فـي عريـي، فأنـا كنـت أفعـل مـا يفعلـه الرجـال..
أنــا اكتشــاف.
ضبطونـا فـي أوج اللّحـن، قبـل أن يكتمـل اللحـنُ، صفّـدوا عقلـي، وقلبـي، ورئتـيّ، ودفعونـي إلـى العربـة، وقبـل أن يقفلـوا نصفـي العلـوي بكيـس الخيـش سـرقت نظـرةً، وكان القمـر يهـوي، والخيـط خلفـه يجـري.

[44]

أبو نظارة

كنّا جراءً تجري، حفاةً تلقي بنا أكواخُ الصدأ..

أنا عن سربي أجنحُ، إلى حيثُ قعدة الكبار، والتنصتُ كان هوايتي، وهم هناك ساهمون على التراب تحت السياجِ، مطرقون كالعابدين، وسطَهم مذياعُ أبي نظارة، وأنا في الجوارِ؛ يدهشني صياحُ المذيع، فإذا ما سكت؛ وعلبةُ المعدنِ شرعت بالنشيد، توجهوا كلّهم إلى أبي نظّارة دفعةً واحدة:

ها... ماذا فهمتَ؟!

أتعلّقُ مع الكبار بفم أبي نظارة... يهزُّ رأسَه إلى الأمام مرتين.. يلقيه حيثُ الجانبين مرتين.. يحكي وأنفه يرقّصُ نظارته:

والله يا جماعة الأخبار غامضة.

يزيدهم كلامًا، لا أفهمُه، أظلّ أتنقلُ، ما بين سرب الحفاة، والكبار الذين يجاورون السياج القمر، عندهم أنتظرُ خبر أبي نظارة الذي سيفهمه من الكلام الفصيح؛ لأرتدَّ دومًا خائبًا، وقلبي يهوي مثل فرخٍ كسيح..

يومًا جاءتنا الطائرات، وجعلت صبحنا بلون القار، ولم يعدْ أحدٌ فينا يرى أحدًا.. تنقّل الموتُ في أزقتنا على سيقانٍ من غبار، وهربت الناسُ؛ فهربتُ، عندها أنا رأيت أبا نظارة يجري بلا نظارةٍ، لكنني عرفتُه، سمعته يصرخُ تحت التلّة، لمّا هوّت أمّ

حسين، رأسُ أمّ حسين يومها في الرمل انغرس، فردت كمّي ذراعيها كرايتين، واستكانت، ومن بعدها لم أر أبا نظارة..

ناس قالت: شرّق.

ناس قالت: غرّب.

لكنه غاب، هو غاب، وأنا انشغلتُ مع الناس في دفن العباد، كبرتُ معهم ألفَ عام، اسودّ بختنا من يومها، ومن يومها لم يبرحني اثنان:

صوتُ المذيع ذاك، وشخص أبي نظارة الذي لم يعد يأتي على سيرتِه في مخيمنا أحد..

[45]

دربُ الأماني..

رمق شرخَ المرآة، وهو يسرّحُ بأصابعِه بقايا شعرِه، عدّل ياقتَه، ثمّ غافل زوجتَه، في الشارع عاودته الحياة، كانت السياراتُ تعدو محملّةً بكلّ الأصناف: كهولًا، وصبيانًا، ونسوة.. يلقون بعيونهم من النوافذ، ثم يمضون.

الدربُ الطويلُ يتعرّجُ، ويعودُ؛ يستقيم.. زمّ شفتيه، وأطلق صفيرًا.. يجبُ أن يحيا كما يشاء، ألا يعبأ بمتاعبِ العمر، لن يكون مثل جارِه أبي حمزة.. ما الذي يجنيه أبو حمزة من صراعِه اليومي.. لا شيء سوى الفضائح.. صوتُ أمّ حمزة يجري من فوق الحيطان، وأبو حمزة دومًا يفرّ؛ وهو يشهرُ باطن جيبيه الفارغين، وعلى صراخِها يردُّ بصراخٍ:

من أين آتي لكِ بالنقود؟

سيمضي أين شاء.. يمتّعُ عينيه أين شاء.. هذه المعارض كلّها قد يملكها.. يخطو قرب الزجاج.. يدقّق في المعروضات.. يدخل هنا، هناك، أهلًا وسهلًا، يردّ التحيّة كأي محترمٍ من العباد، يقلّبُ القمصان، البدل الرسميّة.. يخبرهم بمقاساته.. بكم هذا.. بكم هذه؟.. يومئ برأسِه.. يهمهم.. يخرجُ؛ ليدخلَ المحلاتِ محلًا، محلًا.. بكم؟.. بكم؟.. أها.. جميل.. يصلُ سوق العملات.. يرى الدولار.. هذا هو الدولار.. بكم الدولار.. يخمن كم يمتلك هذا الصّرافُ.. وهذا.. كم مليونًا في السوق.. يدسّ كفّه في جيبه... أها... هنا اللحم المعلّق زهريّ طازج..

بكم؟... تلك الفخذُ قديمة.. لا لا.. هذا أفضل.. وأنت يا هذا بكم هذا؟

وما ألذ رائحة الشواء، سيقفُ؛ ليمضغَ.. هذه هي الفراخ.. هذا هو الديكُ.. أعشقك أيها الرومي مع الملوخيّة.. يومًا سأقتنصك.. قبل ذبحك سنلعب.. ستردّد من خلفي الأصوات.. ستقرقر أيّها البديع.. سآتيك.

يتعمق في الزحام.. يدسُّ جسده بين حسناواتٍ، وقبيحات.. ممتلئاتٍ، وفارعات.. يتخيل أزواجهن.. يعبسُ تارةً، وأخرى يبتسم.. دفعته واحدة؛ فكاد يقع.. التفت؛ فرآها تتنقل مثل دبٍّ.. هذه أنثى؟

ضحك بصوتٍ عالٍ، وهو يشتمُ بعلها.. السوق مجمّع الغرائبِ.. النقائض.. الجمال، والبؤس.. هنا متسولة أسدلت على وجهها ستارة.. مدّت كفًّا.. نعم.. نعم، لم لا؟

مالُ اللهِ لله.. مدّ قبضته إلى عميق جيبه.. لم يَخرُج شيء.. مشى.. عاودته رغبةُ الترنم بالصفير.. يلتفتون إليه.. فليقولوا ما طاب.. سأعيش حياتي.. لن أقضي العمر مستمتعًا بفضائح أبي حمزة.. ها هي العرباتُ عادت.. لا لن يركب.. المشي حياة.. المشي صحة.. رياضة الكهول.. سيمرّ ثانية قرب واجهات الزجاج.. ليت في هذه المونيكان الروح.. هل في هذه المدينة أنثى؟

يمضي على الرصيف.. يترنّحُ حتى باب بيتِه.. يعبرُ الفناء.. يجدها في الانتظار.. تصيحُ.. فيصيحُ.. يهرول إلى الزقاق.. يتحصن بظهر أبي حمزة.. يستخرجان معًا بواطن جيوبهما.. وزوجتاهما على العتبتين.. تلوّحان، وتنوحان.

[46]

عِجْلُ البراري

هـذا عجـلٌ ابـنُ عجـلٍ، حفيـدُ عجـلٍ، لكنـه أيضًـا سـليلُ ثيـران البـراري القديمـة، فـي دمـه رغبـةُ الصّـولِ، ولـم يـزلْ؛ يرسـمُ غاباتِـه، ويـراوغُ فيهـا الأسـودَ الكبيـرة، قالـت أمّـه: مراعـي أجدادك كانـت بـلا حـدود، تبـدأ إذا مـا الشـمسُ صعـدت، ولا تنتهـي بمغيبهـا، قالـت: لحوافـرِ قوائمهـا كان امتـدادُ بطـون الحقـول، ولعيونهـا تضاحكـت ضفـافُ بحيراتِهـا الطويلـة، قالـت: انظـر؛ هـا هـي رؤوسـنا محشـورة فـي قنـاة، تتزاحـم علـى العلـف المُصنّـع، وحوافرنـا طريـت؛ حتـى صـارت مضربًـا للـدود!

وظلّـت عينـا أمِّـه تسـكبان الـكلام؛ إلـى أن هاجموهـا يومًـا، وعقلوهـا بالحبـال، فودّعهـا بدمعِـه، وهـي إليـه تـدور، وترمقـه بنظـرةٍ أخيرة، قـال، وهـو ينـوحُ للعجـول: سَمِّنوها؛ فجـاءت سكينها، وهـي التـي كانـت تـردد: فـي البريّـة لا سـكاكين تهـوي علـى حناجرنـا، ولا كلاليـب تعلّـقُ لحمنـا..

هـذا العجـلُ ابـن العجـل.. حفيـدُ سـلالة الأرضِ الوسـيعة، هجَّنـوه علـى كل السـلالات، حتـى انتفـخ فـي الزريبـة، ومكـث بحوافـره يدقُّ الأرض بغيـظٍ، إلـى أن جـاءه ذاك الزائـرُ، صاحـب البذلـةِ، يحنـي إلـى جانـبٍ طربوشـه، رمـاهُ بنظـرةٍ، ثـمّ قاربـه، لطـم مؤخرتـه،

وقـال: هـذا!

فــي التنــدر رأسُ أمّــه عــاد.. هـزّ قرنيـه، وامتثـل مبتـورًا، عينـاهُ تقـولان: هـا.. جئـتَ صغيـري!

عندمـا دفعـوه إلـى الأرض؛ هـوى علـى مفاصـل قوائمـه، وقـد رأى الصغـار فـي دائـرةٍ يهتفـون، ويجـاوره رجـلٌ بجزمـةٍ طويلـة... رأى أمّــه ثانيــةً تعـود، مكتملـةً تعـود... ثـمَّ وهـو يُطعـنُ؛ رآهـا تهيـج.. ودمُ عنقِـه قـد شـرع يفـرُ مثـل مـاء نافـورة... والعجـلُ رأى الهـواء كتـلًا تتجمّـع، وتـروحُ.. هنـاك بعيـدًا فـي غيمـةٍ بعيـدة!

[47]

إنسان..

ضـرب الأخمـاسَ فـي الأسـداس كعادتِـه فـي كلّ مسـاءَ، صـالَ مرعـدًا، وجـال، فذبـحَ ألفًـا أو يزيـد ذبـحَ الخـراف الراجفـات، تخيّـر فيهـم متلـذذًا مواضـعَ سيفِه، فحـزَّ الرقـاب، وبقـرَ البطـونَ؛ ثـمَّ مـال علـى السَّـبايا، فـاركًا كفّيـه، فانتقـى الفارعـاتِ مـن المستسـلمات، ثـمَّ سـاقهن مهمهمًـا إلـى فراشِـه كمـا القطيـع، فضاجـعَ ألفًـا، أو يزيـد، ولمّـا فـرغ؛ عـاد إلـى الغنائمِ؛ يجمـعُ مـا اسـتطاب، فكنـسَ الأراضـيَ بنظـرةٍ، وأشـار بإصبعـه، فامتلـك كلَّ المـزارعِ فـي الجـوار، ثـم مـال فاحتضـن مـا شـاءَ مـن ذهـب، وكنـزَّ الحقائـبَ، ثـمَّ استفاض؛ فاسـتزادَ بضربـةٍ، نظـفَ الكـونَ ممـا تبقـى، ورآه فيـهِ قـد علـق، بعدهـا أغمـض عينيـهِ، وقـد ارتضـى، فاسـتراح، وعلـى وجهـه ارتمـى مثـل غريـقٍ، وقـد غفـا!

فـي الصُّبـحِ ضربتـهُ الشـمسُ، فصحـا؛ سـحبَ عـكازَه، فقـام مترنحًـا فوقـه مثـل حطـام، واسـتقام، فخطـا عَبْـرَ بابِـهِ العتيـق، ولقـد تنقـلَ؛ حتـى هبـط علـى حجـرٍ يعرفُـهُ فـي الطريـق، صفّـف هيكلَـهُ، ثـمَّ كصنـمٍ شَـخَص، وامتثـلَ فـي الفـراغِ؛ يمـدُّ كـفَّ يمنـاه مفتوحـةً، وبإبطِـهِ مـالَ علـى عـكازِهِ، وقـد انطـوى، وعينـاهُ تذرفـان..

[48]

مطرٌ على المخيم

أبهجه الشعاعُ الساقط على نقعٍ؛ تجمّع من بعد عاصفةِ ممطرة.
كانت ليلةً أسْحَمت، حتى غرق المخيمُ في بئرٍ بلا قرار.
اهتـزّ سـطحُ غرفتهـم بدفـعِ الريـحِ، ومـن بيـن قطـع القرميـدِ المتحركـة؛ شـقّت الظلمـة سـيوفُ بـرقٍ؛ فرَقـدَ أكثـر، وهـو يسـتقبل وَعيـدَ الزلزلـة..
كـم اشـتعل الكـونُ؛ وانطفـأ، وكـم التصـق بعظـام جدتـه التـي لـم تكمـل حكايتهـا.
مـن بعـدِ وابـلٍ مـدرارٍ أطـال؛ جـاء سـكونٌ، فنـورٌ؛ فقـام؛ تتبـع مـن شـقّ البـاب صحـنَ الكـوخ.. كان النـورُ غامـرًا، والقرميـدُ المغتسـلُ يدفـقُ مـاءه؛ ويضـارب التـرابَ ببقايـا القطـر المتبقيّـة.
أبهرته اهتزازاتُ الضَوءِ، وتراقُصُ بلوراتِ القَطر تحت الحائط.
رمـق تقلّـبَ السّماء، وانقشـاعاتها، ثـمّ غافـل الكـوخ، وفـرّ؛ يهـرولُ داخـل الدنيـا المضيئـة.
آخـرُ الزقـاق فـي البقعـةِ الوسيعة؛ كان نقـعُ المـاء تخلّـق، رآه بحـرًا، ورآه صحبـه بحرًا..
وكانوا حُفاةً.. يهرولون.
وفــي لحظــةٍ كمســتجيبين شــمّروا البناطيــل إلــى الرُكــب، وبانــت صــدورٌ دقيقــة، وتعــرّت بطــون..
نعمة كانت ترمقه، وترسلُ صيحتها..

نعمـةُ السـمراء ذات الوجنتين المحمّرتيـن بالـورد، وتعالـت قهقهات، كانـت فردتـا حذائهـا مركبيـن صغيريـن فـي البعيـد، وكانـت تولـول، وهـم يقهقهون..

رمقها، فهدأتْ.. خلع قميصه، وكعابر نهرٍ خطا بجسده النحيل..

وحين وصلهما؛ راوغاه.

لكنّـه جمعهمـا، وعـاد يخطـو، وكانـوا يصفّقـون، وكانـت تضحـك؛ لتبكـي.

وكانـت الريـحُ قد أنهـت مهلتهـا، وخجلـت الشـمسُ، وعـاد الصفيـرُ مـع الرجيـع، وأطبـق الضبـابُ، ومعـه أطبقـت كـفّ جدتِـه التــي جـاءت تحنــي ظهرَهـا؛ لتسـحبَه إلــى غرفـةِ كوخِهـم الواطئـةِ فــي آخـر الزّقـاق..

[49]

حسناءُ حارتِنا

تلك الحلوةُ أذهلتْ فتيانَ زُقاقِنا..

كانـت كلّمـا مـرّتْ، هرولـوا مـن خلفِهـا، ومـن أمامِهـا، وهـي ترمـي بسـمةً، وتـهزُّ جديلتَهـا..

ربحـي فقـط، اسـتطاع أن يلقـمَ كفَّهـا رسـالتَه التـي كتبهـا لـه غيـره، ومكـث الآخـرون يرقبونــه تحـت الجـدار، حتــى جـاء برسـالتِها؛ فتحلّقـوا مبهوريـن بحروفهـا التـي رؤوسـها عصافيـر تطيـر.

صـار يـروح بالرسـائلِ، ويجـيء، وقـد توقـف فـي عينيـه الزمـن.. هجـر عربَتَــهُ، التــي كان يجرُّهــا، حتــى صــارتْ خــردةً ملقــاةً للصغـار.. ظـلَّ يتبختـرُ بقميصِـه الـذي اشـتراه، إلـى أن جـاءَ يـومٌ زفـت فيـه لـه الحلـوة.. مـرّ فقـط يـومٌ.. ربمـا بعـضُ يـومٍ؛ قبـل أن يغمـى عليهـا، ثـمَّ تفيـق؛ لتدخـلَ غيبوبـةَ ذهـول.

كانـت عيناهـا تحدِّقـان، وعقلُهـا التائـه يحـاول معرفـةَ ذاك اللعيـن الـذي كان يكتـب الرسـائلَ لربحـي تحـت الجـدار..

[50]

شَبَق

لاصقته في المقعد الخلفيّ لعربة الأجرة، ساقها الممتلئة مالتْ عليه، لماذا لم تجاوره مرافقتها العجوز؟
هرب محترقًا إلى الأشجار اللاهثة.. في المذياعِ مغنيّة تغانجت، انكمش ملتصقًا بالباب، وتشاغل بركض الأشجار.
كفُّها سقطتْ على ساقه.. ابتلع صرخة كادت تفضحه، خمَّنَ وجه السائق الخشن في المرآة؛ يزجره، ذراعها تمددت؛ جرى فيه وحش، أصابعها تحركت، ورأسها استلقى على صدره كعصفور نار.
رسم في الأشجار صورة لوجهها، رآها غجرية تهيج شعرًا فحميًا، وتشهر في الصدر التفاح.
قالت جارية في ورق الشجر:
- كلني.
انهار في المقعد؛ ينتفض، لكنّه فوجئ بصوت أمّها الضعيف، يوقف العربة، ثمّ وهي تنزل تمدّ ذراعيها، وتسحب على الإسفلت مجاورته، غائمة العينين مترنحة، لتجرّها إلى بناية، كتب عليها:
للأمراض العقلية.

[51]

واحةُ الخالصين

حامت جبالي، وخلتُها لا محالة ساقطة.. هرولتُ هرولةَ فَارٍ، وكانتِ الدُنيا ذاتها.. إسفلتٌ ترنح، وعرباتٌ مضت، ووجوهٌ في الشمسِ أعتمتْ.. كنتُ أضرِبُ إلى مَفرَجِ كروبي.. صعدتُ الإسفلتَ وهو المطروق بلا صعود؛ حتى وصلتُ الفسحةَ الدائريّة المُعَبَّدة، عبرتُها مراوغًا، ولم أتبين ملامحَ، خلتُ المارينَ فارين؛ وكلٌّ إلى مأمنٍ يشدُّ الخطَى.

اجتزتُ ما تبقى من عَمارٍ، وساقتني ساقاي؛ فكنتُ المسوقَ المطيعَ إلى فُرجةِ سورٍ كَلِح، تهدّم في غيرِ موضِع.

فوق طرقةِ الترابِ؛ صعدتُ سلمَ السماء، وهامتي تحت جبالي المتجهمة..

عبرْتُ؛ فتنفس قلبي في مرأى الأجداثِ المصطفّة، وقد حسبتُها عادت عرفتني؛ فابتسمتْ.

رمقني صمتُ الأشواك المهيبُ، وشرع خطو عينيَّ يتحسس تحتَ البلاطِ مضربَه، فكنتُ نقّارًا؛ جاء يدعو الراقدين لموعدٍ، وخفق صدري لبزوغِ رؤوسِ الشواهدِ.

وعدتُ أقولُ:

هذا فلانٌ، وذاك فلان.. هامستهم همسًا، وخاطبتهم صياحًا، ليس يسمعُهما سواي، والموتُ عاد يتلقطُ المغادرين فرادى، ويحصدُ

جمعًا، وهدرتِ الطائراتُ، وتبعثرتْ أجساد، ووجدتني أصيحُ، وأجمعُ عظامًا من جديد، ورأيتُ جريَ النعوش، ذاتَ النعوشِ مُحَمَلَةً بالأشلاء، وبالهتاف، وعادتِ الأمنياتُ تذبح، ومفجوعةً تموت، ووقفتُ أرمقُ الملامحَ الأخيرة؛ وهي تهوي في حُفَرِ السَفرِ الساكنة..

لم أقوَ على استبقاء وجهٍ بعينِه، فالوجوه تزاحمتْ فوق الشواهدِ، وترنحتْ، وقد عبرتْ كلابٌ، وتقفّزتْ قطط.. وامتطّ نباحٌ، وماج مواء، وحسِبتُ كلَّ هذا ندبًا، ورثاءً، وقلتُ:

وربما اعتراضًا على تجرؤ تطفلي..

في كلِّ هذا شدتني أشجارٌ عاندت الموتَ، وأزهارُ شوكٍ، خُلقتْ تخصصًا لمهابةِ الموقف، وزادته فرادة، فاتسقتُ أنا، حتى أحسنتُ، وتماهيتُ مع قداسةِ مشهدِ واحةِ الخالصين، ومن أعلى جمجمتي انطلق خيطُ دخان، سرعان ما انفلت؛ ليشتدَّ، ويمسي عمود دخان انفلت من مرجل..

صرتُ أتنقلُ -مفلتًا دخاني- وضربتُ في الصمتِ؛ حتى خَفَت أحمالي، وصرتُ بوزن ريشةٍ تلاعبت، وقد أثملها صمتٌ مريح، لا يقطّعهُ إلا النباحُ، ثمَّ المواء، كلازمتَيْ لحنٍ لن يدركه سواي، آتيه؛ فيستقبلني؛ ألقي عليه أحمالي، ويلقي سمفونيته..

ويقولون: مشعوذ.. يقولون: مجذوب.. مسحور.. أو مجنون.

يقولون ما يقولون.. لا شيء يمنعني؛ أنْ أهرّبَ رأسي من الجبالِ الحائمة، كلما تداعتْ، وأن أكونَ مع كلِّ هذا الحبِّ في جنةِ واحةِ الخالصين.

[52]

أيامُ الحارة..

كان زعيم شلتنا القادر أن يتركنا مبهورين..
من كان ينازعُ عبد المنعم؟
يسوسنا؛ فنترك مقاعد الدرس، وجحيمَ عصا معلم الحساب.
نصيرُ على خطِّ الحدود.. يشيرُ مثل واعظٍ إلى البنايات في السهول المترامية، يقولُ:
تلك بلادنا..
نغرقُ في الحلم.. نغرق؛ إلى أن توقظنا عرباتُ الدوليين.. نرى ذوي العيون الزرقاء؛ يبتسمون، وهم يلقون إلى الإسفلتِ أعقاب سجائر تبغهم المستوردة.. نلاحقُ شراراتها، ثمَّ نبدأ بالشهيق.. وننفثَ الدخان كما يفعلُ الكبار.
يأخذنا عبد المنعم إلى موقع القمامة.. نجمعُ علب التَّلة الفارغة كلّها، وأغطيتها، ثمَّ نعود، وفي الحارةِ نرقبُ يد عبد المنعم، وهي تصنعُ عرباتنا المنتظرة..
وعبد المنعم كان القادرَ أن يمنحنا الشلنات، يستخرجُها من جيبِه الدقيق الذي تحت الحزام، ثمَّ يوزعنا على حوانيت ذوي النظر الخفيف.. نخطو بشلنات المعدنِ متباعدين.. نشتري أيَّ شيء.. سجائر، حلوى، لا يهمّ، المهم قبضَ الفكّةَ المتبقية.
يومًا قرر أن يكشفَ لي سرّه؛ أخذني، وصنع أمامي المعجزة..

أخرج التعريفة الصّفراء من جيب سرواله المرقّع، ثمَّ أسقطها في طبق التوتياء.. مشى إلى خزانة أمه ذات الباب المخلوع، وجاء منها بزجاجةٍ، ومثل عالمٍ سكب السائل.. عندها رأيت التعريفة، وهي تغلي، ثمَّ تصير شلنًا أبيض.
همس عبد المنعم، وهو بإصبعه يشيرُ، كمن يورث سرّه:
ماء نار.
رأسي الدائخُ اهتزَّ، وأومأ كرأسِ تلميذٍ فاهم..
في نهارٍ مرّت زينبُ، وعبد المنعم قال: كبرت زينب.
رأيتُه يدقق في الصدر العالي، وعندما مضتْ؛ قلّد بخترة مشيتها..
في المساء جاءنا يجرُّ بوصة.. سار إلى آخر الزقاق، فتبعناه، قال: نجلس.
ارتمينا على التراب تحت القمر، ولمّا علا شخيرٌ؛ قال: الآن.
مسح المحيط بعينيه، ثمَّ امتطى الجدار الواطئ، سحب البوصة، وتباعد الجمعُ، عزمتُ أنْ أرى؛ فصعدتُ حجرًا، ثمَّ قفزتُ؛ حتى جاورتُه.. رأيت عنب عريشة الدار تدلّى؛ وقد لمع كما الذهب فوق أجسادِ النائمين.. البوصةُ مشت، وفي يد عبد المنعم طرفها، وطرفها الآخر حام.. رأيت جسد زينب.
صحتُ: لا.
قال: سأوقظها.
قلتُ: يا مجنون.
حاولت أن أمسك يده؛ لكنَّ البوصةَ مضت، لكز زينب في خاصرتها؛ فهبّت ممسوسة، وهويتُ أنا إلى التراب.. جريتُ،

يتبعنــي ضَحـكُ عبـد المنعـم، وصياحُــه: يــا جبــان.

عبـد المنعـم الآن جـاري.. أرقبُـه وهـو يتكـوّمُ علـى حصيـرة بابـه.. أنفـه خرطـوم، وعينــاهُ ثقيلتــان، يفتحهمــا؛ ليغلقهمــا.. أراهُ شـيطانًا قـدمَ مـن منجـم.

أتمتم:

أهذا عبد المنعم؟

[53]

الأعرابيُّ الجميل

ذات صيفٍ قديم..

وقـد كنـا مُعلّقيـن كذبائـح بهـو؛ وشـيطانُ الصمـت يختـال، كان السـقفُ فـي مسـلخ سـجن غـزة قريبًـا، لا تلمسـه يـدان، وبـلاطُ الأرض تفصلــه عـن أطـراف القدميـن بضـع بوصــات..

مـا جرى، لـم يـزل يسـكنني.. حيـن جـاءت الأقـدام، وأنزلـوا زويّد.. نزعـوا كيـس وجهـه؛ ليـرى وجـه أبـي حديـدٍ؛ ومـا تسـنى لحظـاتها مـن الدنيـا.

اسمك.. عمرك.. إقامتك..

اشرح علاقتك بالمخابرات المصريّة.

سكت زويّد؛ فصفعه أبو حديد.

سمعتُ الصفعة، ثمَّ صوت زويّد.

خلته يشير، وهو بالبدويّةِ الثابتة يقول:

- أنتْ تضربني!

وسمعت قهقهة أبي حديد.

- أها.. أنا أضربك.

لـن أنسـى مـا حييـت مـا رأيتُـه مـن قـدرة ذاك الإنسـان -وقـد نـوى- علـى الصمـود.. ولا درس ذاك البـدويّ الأمـيّ لنـا، فـي فـن التحـدي.. بـدويٍّ عايـش الصحـراء، لا يجيـد الكتابـة، ولا الخطابـة!

كلّنا سمعناه وهو يقول:
- اسمع.. أنتْ مِخبر.. وأنااا مِخبر.. لكن إن كنت رجلًا مضيني علـى الورق.
اعترف زويّد، لكنه كان اعتراف التحدي.. جنّ جنون أبي حديد... صار ذئبًا مصابًا بالسعار، يعوي على ظهرِ جمل.
كان زويّد طويلًا، عريضًا، له صدر حصان، وذراعا آلة،
استقبل الضربات، وهو يردّد:
- إن كنت رجلًا مَضيني على الورق.
وخيم صمت طويل، ثم انفجر البهو.. كان أبو حديد قد استقدمهم جميعًا، وكانوا أحد عشر ضابطًا.. يرأسهم من أسمى نفسه أبو عادل.
صار البهو ساحة وغى، جميعهم هاجموه، وصدّهم جميعًا.. كانوا يدكونه بالعصيّ، وبالقبضات، وتدخل الحراسُ أيضًا بأعقاب البنادق،
وكان يدكّهم بذات الكلمات، وكنّا بعيوننا من داخل الأكياسِ نهتف.
أنا خشيتُ أن يموت زويّد، أو أن ينهار من بعد كلّ ذاك الصمود الفاتن.
انتهى التحقيق معنا جميعًا.. انتقلنا إلى غرف العنابر، مضت الأيام، وصارت تأتينا إلى الغرفِ أفواج جديدة، وسؤالي الأول دومًا:
هل يوجد هناك شخصٌ اسمه زويد؟

ودومًا كانت الإجابة تأتيني:

يا لذاك الرجل!

أعـود أستفسـرُ متعجـلًا، ويعـودون إلـى وصـف المعـارك التـي تـدور فـي بهـو المسـلخ.

بعد ستة أشـهر كاملات؛ خـرج زويّـد مـن الزنازيـن علـى سـاقيه.. مشـى مـع آخريـن إلـى سـاحة السـجن.. مشـى ولمّـا يأتينـا.. صعد حافلـة الصليـب الأحمـر.. غـادر زنازيـن بلادنـا إلـى شـمسِ بـلادِه، مصـر .. مـن غيـر أن يوّقـع علـى أيّ ورق!

[54]

أبواب الجحيم

خرج الإسرائيليون؛ فزحفنا إلى السرايا تحت الطبولِ الراجفة، ولقد رغبتُ دخولها خاليةً؛ فسبقتُ الناسَ إلى سورها المتعالي، رميتُها بدهشتي، فتمطّتْ مثل بغيٍّ فات زمانُها، وأوسعتْ، فدخلتُها فاتحًا من غير سيفٍ، وعاودني الزمانُ -ذاتُ الزمان- فجمعتُ أنفاسي غير هيابٍ، ثمَّ عبرتُها، لكنّ وجهَ حاكمها العبريِّ اعترضني في ساحتِها، وقد لوّح، ثمَّ صاح متجهمًا:

- أمسكوه!

فصحتُ:

- مَنْ يُمسكُ مَنْ؟

وتوغلتُ، فهاجمتني القيودُ في ممراتِها، وصفدتني، وعدتُ على أبوابِ الجحيمِ أُسحبُ من بابٍ إلى بابٍ؛ حتى وصلتُ بابَ مسلخِها؛ فشخصتُ فيهِ كما الذبيح، كانت الزنازين طابورين من ضباع، وتعلّق الصمتُ، ثمَّ تفجرّ، وتعبأ البهو بالنواح، وجاءتني الصيحةُ:

- إلى الصنبور.

فبُح حلقي:

- وأين الصنبور؟

وفـي عينـيّ ركـضَ الرجـالُ عـراةً، وتفتـحَ اللحـمُ، والدمـاءُ تدفقتْ، وسـمعتَ منـا صيـاحَ رجالنـا:

- الله، الله!

وعادوا يردون على صياحِنا بسبِّ ذاتِ الإله!

وأضحـى الكـونُ يصْفـرُ، وفـي الخـارجِ رجـفُ الطبـلِ مـات، وخطـوتُ منصاعًـا فـي جـوفِ العطـنِ إلـى بـابِ زنزانتـي، فانفتـح، واسـتعرضَتْ إسـمنتَ أرضِهـا، وبلاطـة مرحاضهـا القاتلـة، وفـي الدهليـزِ صَـرّتْ علـى الأبـوابِ كومـةُ المفاتيـح، فشـحبَ أصحابـي، وتأرجحت أسناننا، عدنـا انتفضنـا للصريـرِ، كـمِ انتفضنـا للصريـر!

وانزاحَ بابٌ في الجوارِ كما الجبل، فجاءني همسُ الرفاق:

- من في الكيسِ يُسحبُ، ليعودَ أنينًا في حطام؟

وقامـتْ عينـاي إلـى نقشِ اسـمي، وجاءنـي مـن الجـدارِ كتـفُ رفيقٍ، فعـدتُ أصعـدُه؛ لأسـرقَ لمحـةً مـن شـمسِ اللهِ، وسـقطتُ عـن كوّتِهـا علـى وسـخِ البـلاط، فزحفتُهـا، ليتلقفنـي فـي زاويـة البهـو أبـو حديـد.

جردني أبو حديدٍ، ثمَّ وضعني تحت الصنبورِ كما عملني الله.

- لا تحرك رأسَك.

وبـدأ المـاءُ يـدقُّ الدمـاغَ قطـرةً، قطـرة، ظـلَّ يـدقُّ كسـهامٍ فـي ذاتِ النقطـة، فصـارت رأسـي كتلـةَ ثلـجٍ، صـارتْ ليسـت لـي، ويعاودنـي أبـو حديـدٍ تحـت الصنبـورِ، ليلطـمَ بالأنبـوبِ موطـن ذكورتـي، لطمـةً تتلوهـا الأخـرى.. كان يبتـرُ لحمـي، ويصيـحُ:

- سأقطعُ نسلك.

يلاعبني أيامًا ثمَّ يسحبني بلا عينين؛ عيناي في علمِ الغيب.

ويوقفني بلا يدين، يداي نسيتُهما في الأصفاد.

يصرخُ:

- افتح.

يباعدُ ساقيّ بهراوتِه؛ لأصيرَ صنمًا كما الرقم ثمانية، وأصيرَ لوحًا يسبحُ في الغيمِ.

ثمَّ يصرخُ على خصيتيّ كبطلٍ، ويرفسني مثل حمارٍ، فأشهقُ أنا على الأرض، أشهقُ، وأقولُ: مِتّ.

***

من أقاصٍ بعيدة جاءتني الزغاريدُ والهتافاتُ، فراوغتُ البهو كمبعوثٍ تحت رجفِ الطبلِ، ثمَّ فررتُ.

كانت ساحةُ السرايا تضجُّ بالآلاف حول منصةٍ عالية، فدرتُ كما الطريد.

وضجَّت الجموعُ:

- الزعيم، الزعيم!

ورأيتُه في لباسِه الخشن يأتي، وقد تعرّقتْ تحت كوفيته جبهته المتعبة، وخمنتُه قد رآني، فصحتُ متتبعًا شارة إصبعيه:

- يا ريس.

قمتُ؛ لأجري، قلتُ: ألثمه. قلت: أحادثه. وقلتُ: سأكشفُ ما فعلَ اليهودُ.

وعبرتُ الزحام، وقد ضاع وزني، وحلّقتُ على غمام، وتمنيتُ لو كان لي مئةُ حلقٍ أهتفُ به، ولو لي ألفُ ذراع، وحملقتُ، فوصلتني أنفاسُ الزعيمِ لاهثة، وجمعتُ بقاياي، ونقّلتها،

فصدمنـــي علـــى المنصـــةِ وجـــهٌ أعرفـــه، ثبّـــتُّ نظـــري، فتيقنـــتُ، فصرخـــتُ:

- الحاكمُ!

وطارد صوتي في صدري كالحريق:

- يا ريس.

لكنّ الزعيم ظلَّ يهتفُ؛ فصحتُ:

- يا إخوان.

فلـم يسـمعني حتـى مجـاوري، فـدارتْ بـي عفاريـتُ، ثـم رمتنـي فـي فـراغٍ، وسـمعتُ حلقـي يصيـح:

- يا ريس.

لكـنَّ الحاكـمَ العبـريّ علـى المنصـةِ قـد خطـا، ليظهـرَ جـوارَه أبـو حديـد، وأخـذا يلوّحـان، فشـهقتُ تحـت الأقـدامِ، وغرقـتُ فـي غيمـةٍ صلصلـت فيهـا القيـودُ، وأبـوابُ الزنازيـن عـادتْ تصطـفُ علـى عجـل.

[55]

نَفَسُ نارجيلة

التقطَ الجمرَةَ بملقط الحديد، ثمَّ وضعها على الرأسِ..
سحبت بشفتيها المكتنزتين، فقرقر الزجاجُ بين ساقيها.. تسلقتها عيناهُ.. قالت: شكرًا يا.. ولد!
قالت: لا تنسانا يا ولد، حين يحررون لكم البلاد.
نفثت الدخان حزمةً طويلةً، ما لبثت أن تمددت سحابةً هائلة..
نزل من على شرفةِ القصرِ.. مضى عبر أشجارِ بستان المدام.. انحنى؛ ليلقي نظرته الأخيرة.. كانت المدامُ على جلستها، ترمقُ خطوَه المتباعد.
لم يدمْ الأمرُ طويلًا.. أيامًا كانت فحسب، وصدر البيانُ الأوّلُ، وقبل أن يتهيأ للعودة.. كانت جموع المخيم -من جديدٍ- تلطمُ حظوظها اللعينة.
لم يعُد إلى بستان المدام، لكنّه عَبرَ البلادَ المتاحةَ الجديدة، جاءها زائرًا منكسرًا، لا سيّدًا فاتحًا... طريقُ الخليل ليستْ طريقَ يافا، طريقُ الخليل تُوصلُ إلى المنكسرين مثلِهِ، شهد الجبال للمرة الأولى، التقط أنفاسه، والحافلةُ تُصرّ مثل سلحفاةٍ عنيدة.. ترفع مقدمتها؛ لتجرّ ما تبقى من جسدِها، سائقو غزة فرسان سهل، لا فرسان جبل، الخليل تبعتها بيتُ لحمٍ.. أسماء سمع بها من قبل، الاحتلال جمّع البلاد، وحدها.. التفَّت الحافلةُ شرقًا.. قالوا: جبل المكبّر.. وقالوا: ممنوعٌ أن نعبرَ القدس

الغربيّـة.. عقلـه لـم يفهـم.. عقلـه غزتـه جيـوشٌ نمـلٍ، خدرتـه، صـار أسـيرًا لِمـا يـرى، ولِمـا يسـمع،.. هـذه القـدسُ.. عرفهـا مـن طلعـة قبّـة الصخـرة.. وهـجٌ هـوى.. شـهابٌ حـطَّ.. فـزِعَ.. قـام.. دقّـق فـي قـوسِ الذهـب.. بكـى مـن غيـر صـوتٍ.. بـلا دمـع.. بكـى كمـن قـرر الانتحـارَ كمـدًا.. فـي القـدسِ نـزل.. الشـارعُ الفاصـل محطـة الحافـلات عـن بـاب العمـود.. رآه مـن قبـلُ.. هـو رآه.. ولـو جـاء علمـاء الكـونِ؛ ليقنعـوه أنّ ذلـك مجـرد تخميـن؛ لرفـض هوسَـهم.. هـو مـن قبـلُ رأى هـذا الشـارع بتفاصيلِـه هـذه.. تفاصيـل هـذه اللحظـة بالـذات.. رآه مـن مخيـمِ غـزة... ومـن قبـل الهزيمـة.. رأى هـؤلاء النـاس بالـذات.. هـذا الرصيـف.. رأى حتـى هـذا البائـع المتجـوّل.. يـا.. الله.. أمسـك برأسِـه.. رآهـا قنبلـة تـدقّ ثوانيهـا.. ضغـط بعنـفٍ.. ليمنـعَ رأسَـهُ أن تنفجـر.. هـؤلاء قومنـا.. هـؤلاء أحبابنـا.. نـزل مـن الحافلـة برفـقٍ، نـزل بدقّـة.. رأى بـاب العمـود ينايـه.. أعلـم.. أعلـم.. قـال: أعلـم.. وتأكّـد لـه أنّ الأمـر جـديّ.. وأن رؤاه تتحقـق.. اشـترى كعكـةً، ولفّـة زعتـر.. اشـترى أيضًـا بيضـة مسـلوقة.. دخـل بـاب العمـود.. وجـد المقهـى ذاتـه.. قـال: أرأيتـم.. هـا هـو المقهـى أيضًـا.

اسـتلقى علـى مقعـدٍ علـى الرصيـف.. جـاءه النـادل.. حـدّق فـي الرجـلِ، كمـن يجـد ضالتـه.. هـزّ رأسَـه مغمغمًـا.. سـأله:

- ها.. ماذا تطلب يا سيّد؟

- نارجيلة.

لـم يـدرِ كيـف قالهـا، هـو لـم يدخنهـا فـي حياتِـه، بـل لـم يدخـن السـجائر ذاتهـا، لكنّـه قـال: نارجيلـة.

مضـــى الرجـل، وانكفـأ هــو يــأكل، كان يمضــغُ، ويرفــعُ عينيــه، يحــدّق فــي الســقوف المعقوفــة، فــي النــاس المّــارة، رأى أجســادًا بملابـس عربيّــة، يتخللهـم آخـرون بشـعرٍ معقـوصٍ علـى الجانبيـن، أحــسّ بقلبــه يقــوم، جــاء النــادل، وضــع النارجيلــة، زيّــن رأسَــها بالجمــر، ومضـــى.. مــدّ ذراعَــه كخبيــرٍ، أخــذ الأنبــوب الطويــل، ســحب النَّفَــسَ عميقًــا، نفَسًــا واحــدًا ســحبه جوفُــهُ... قرقـر الزجــاجُ، لكنّــه لــم ينفثْــهُ، لــم يصنــع حزمــةَ دخــانٍ، لــمْ يُطيِّــرْ ســحابة، بــلْ ســكينٌ ضــربَ حلقَــهُ.. خنقــه.. جحظــت عينــاهُ.. اهتــزّت النــاسُ.. تراقصــت الســقوفُ.. انغلــق ضبــابٌ، ثــم انفتــح.. مــن بعيــدٍ جــاء وجــه مــدام القصــر، مــن غــزةَ جاءتــه بقهقهــةٍ تحتــدّ، وتمتــدّ.. تصيــرُ عــواءً يمتــطُّ، ويقــولُ:

يا.. ولد.

[56]

المستكشف..

عندما شرع الطرقُ؛ تقطّعَ الصمتُ..
كان ثمة خطرٌ داهمٌ يقترب.. بدأ كخطواتٍ تقترب، ثم تتوقفُ..
وكانت أرضية الزقاق تتسق.. تقرّب الطرق، وتبعده.
كان قرب زوجته.. نظراتهما تلتقيان.. وتتباعدان..
وكان هو على وشك الوقوف لفتح الباب الذي لا يقرع..
في نهاية الليل كانا على حافة الجنون.. صاحت، فصاح.. قام على ساقين مترنحتين.. خطا.. ثمَّ خطا.. تمسك بالجدران، كان الطرقُ يخفت متباعدًا.. جاور باب الصفيح..ألقى كفّه، وأدار مزلاجه، صار في مواجهةٍ مع الخارج.. تلمس بقدمين حافيتين الأرض، وكان الزقاق ضيقًا بحجم جسده الدقيق..
أثنى جذعه، وتقدّم، تخيّل للحظةٍ أنه بطل خفيّ، لا يراه أحد، بطل في غياب كل البشر، فراقته الفكرة، ورفع ساقيه، واحدة تلو الأخرى كمن سيقبض بنفسه على مكمن الخطر، تتبع الطرق، حتى اتسقت معه ساقاه، خطوة بطرقة، أخذه الطرق، وكان الملبي المستجيب، غير هيّابٍ رغم لهاثه، وأمّا رجفه؛ فأرجعه لهول الموقف، لا لجبنٍ فيه، استدار الطرق؛ فاستدار.. توقف برهةً، فتوقف.. ثمَّ عاد لخطوّه.. طرقة، بخطوة.. في لحظةٍ أدرك أن الطرق يخرج من داخل كوخ بعينه، فهزّ رأسه

فـي عتمـة الليـل، هـزّه كمستكشـف، ثـمَّ اعتـدل أكثـر، أنهـض كتفـي جسـده الفـارع، ومـن فـوق الجـدار الواطـئ ألقـى نظـرة، فـرأى سـاقًا ممتـدّة، وقدمًـا تـدوس، كان حديـد سـرير صغيـر يـروحُ، ويجـيء.. وكان الحديـد يطـرق الإسـمنت.. وكان رضيـعٌ يغفـو متنعمًـا بالطـرق.

[57]

راحة

مـا إن جـاء العصـرُ؛ حتـى كان قـد اعتلـى السـقالة، وألقـى عـن كاهلـه آخـر كيـسِ إسـمنتٍ فـوق الأكـداس.. هـرول مغبـرًا حتـى جـاء فَرشـةَ كوخِـه الوحيـدة مجـيءَ الحبيـبِ إلـى الحبيـب.. رمـى جسده المثقـل، ثـم غـرق فـي سـباتٍ؛ متخلصًـا مـن دنيـا المتيقظيـن.

لكنـه سـرعان مـا عـاد مـع قفـزةٍ، ثـم سـقوطٍ، مـن بعـد أن قصـف الطـرقُ بابـه المتـآكل، والمتفتـح فـي عـدة ثقـوب..

ارتجف؛ حتى اهتز..

فمه المعقوف تقدم ظهره الملتوي.. هَمس:

- مِ.. ين؟

لكن صوته سقط سقوطَ فراشةٍ لم ترَ النور.

اهتـز البـاب، حتـى كاد يطيـر، فهـب علـى سـاقين نخـر عظامهمـا الرعـب، والتـاع قاعُـه، وهـو يصيـح:

مِ.. ين؟

وجاء صوتُ جارِه:

- أنا.

كان صـوت ذيـاكَ السـجين الغائـب منـذ سـنين؛ فتعاظـم رعبُـه، وكبـرقٍ جاء يـومُ الحادثـة، حيـن كسـر عبـد الجبـار رأس أحدهـم.. يـوم أن رفعـه، ودار الرجـلُ مثـل خشـبةٍ تشـهرُ ذراعيـن، وتفتـح

ساقين، وزأر عبد الجبار، قبل أن يضربَ الجسدَ الدائر، بالتراب.

عصَر ذهنه، ليتبين؛ إن كان يومها قد أخطأ، وأخذ يتيقن، وجذعه يخطو، أو يزحف، وكان يلمُ بنطاله، وهو لا يدري أساقاه تحملانه، أم هو يحملُ ساقيه، فإذا ما لامست كفاه المزلاج؛ لم يدرِ من فتحه.

كان عبد الجبار يُشرعُ جسدَه، وينثرُ شعره..

كان يمدُ ذراعًا، ويفردُ كفًّا.. كان يحدقُ؛ ليتمتم:

أعطني سيجارة يا جار.

[58]

استرخاء

لمَّـا عبـرتُ شـرخَ حائـطِ الراحليـن؛ دهمتنـي رائحـةُ الصبّـارِ، ولطمنـي شـوكُ القبـور، حتـى وصلـتُ رمـلَ بقعـة، فـكان أطـرى مـن سـجاد حريـر. ومـا إن انطويـتُ مسـترخيًا؛ أرتشـفُ ذكـرى الغائبيـن؛ حتـى تقشـر قبـرٌ تقشـرَ مـوزةٍ، وهيـكلُ صاحبِـه قفـز؛ يمـزّقُ كفنـهُ، وأخـذ لسـانهُ يصيـح:

- اخرجوا يا قوم..

ثـمَّ أخـذ ينفض غبـاره؛ ويكسـو عظامـه، وقـد توشّـح بكآبته، وشـرع يشـهر سـبابته مسـتغرقًا فـي إنشـادِ مـا حـلا حالمًـا ممتـدًّا كانّـه وتـرٌ مشـدود، يهتـزّ فـوق سـحيقِ أعمـاق، ولبـث هكـذا يمـوج، حتـى اشـتدَّ؛ فاعتلـى، وصـار غيمـةً تهطـلُ الأشـعار..

وبينمـا أنـا فـي ذهـول، تهزنـي دهشـتي، حتـى خـفَّ وزنـي، ووجدتنـي ريشـة ريـح؛ وإذ بجـوفٍ آخـر ينفتـحُ، ويخـرجُ منـه أبـي، يرمـى كفنـه، ولهثـتُ أنـا، وهرولـتُ أتحسسـه؛ فوجدتـه عـاد صلبـا، بالضبـط كمـا كان، ومضـي؛ حتـى قـاربَ المنشـد، وعينـاه قـد شـرعتا تتلقفـان منـه درر الأشـعار..

ولمّـا لاحـظ أبـي إشـراقتي، سـمعت صوتـه، ذات صوتـه، وقـد هتـف:

- انظر..

وإذ بالقبـور تتفتـح تباعًـا كثمـار، وعظـامُ النـزلاءِ تتماثـل قائمـةً،

لتمشـي، وتأتـي المنشدَ صامتـة، ثـمَّ مـا لبثـت الأرجـاء أن اهتـزت بجمـوع المنشـدين، حتـى بـدوا فرقـةَ شـدوٍ هائلـة..

- الله!

هـذا مـا قلتُـه أنـا، متمنيًـا أن يـدوم ذلـك الحـال، وألا أُفجـعَ بصحـوٍ مقيـت.

[59]

الْوِنْش

كان في حارتنا.. رأسُه ثقيلٌ أشعث، وكرشه زاده قِصَرًا، إذا ما غاب؛ افتقدناه، وذهبنا جماعةً، نصيح:

- يا.. ونش.

أبوه يخرجُ بالشارب الكبير.. عيناه تقدحان؛ فنقفز:

- رَوْحوا، يا أولاد الكلب.

يغافلُه، ويأتينا، فنضربُ قفاه، ونقرصُ خديه الواسعين، وننتفُ شعرَه المتهدّلَ المتسخ، وهو يوزعُ الابتسامات:

- اسكتْ يا راجل.

خطونا إلى البعيد، تعمقنا في الأشواك، وعيوننا ترمقُ زهر الصّبار، وأرجحة الحساسين.. عبرنا البساتين إلى حيثُ يجلس الأفندية:

- نفرد لكم كوم الزبل تحت الشجر.. يا خال؟

كان كلُّ أفندي يقيسُ قاماتنا، ثمّ يهزّ طربوشه، ويحرّكُ عصاه:

- روح أنت، وهو!

كانت جيوبنا فارغة؛ فصببنا على الونش غضبنا، صفعناه، وركلناه، وصعدناه مثل ضباعٍ، حتى باغتتنا لهاثُ الكلاب.. كانت تشهر أنيابها، وتهزّ ذيولها، وكانت ظهورنا إلى السياج. قلنا: ضعنا ورب الكعبة..

همّت بنا؛ فأغمضنا، حتى أوقظنا صوت الونش.. رأيناهُ ذئبًا؛ أصابه سعار.. قفز بخفةٍ إلى عمودٍ في السياج، وعاد بطلًا رثًّا.. كان يصيح، والعمود يهتزّ، ورأينا كيف نكّسَت الكلابُ؛ حتى طأطأت، وكنا نحملقُ، ونتتبعها كيف تفرّ.. كانت عينا الونش ليستا عينيه، كانتا تتقلبان كعينيّ جنيٍّ.. انتظرنا، كم انتظرنا؛ حتى استقرتا؛ وفتحتا لنا الطريق.

[60]

أحراش... وأفيون.. وكرة مُذَهّبة

يـوم امتلـك حسـن صديقـي تلـك الكـرة؛ رقّصهـا... مطاطيّـةً ملوّنـة.. غلـبَ عليهـا لـونُ الذهـب... أبـوه كان صاحـب مقهـى.. أسـمر نحيفًـا.. كنـتُ إن رأيتُـه.. تخيلتـه يعلـكُ قطعـة الأفيـون التـي دسّـها تحـت لسـانه..

هذا ما رددته على مسمعي نسوةُ حارة مخيمنا الصغيرة..

فـي بيتنـا تـرددتُ طويـلًا مـن قبـل أن ألقـي قنبلتـي.. وأطلـب كـرة مماثلـة.. أنطّطهـا علـى الجدارِ... فـورًا قـام أبـي.. دكّنـي دكًّا.. كمـن ينهـي أمـرًا مسـرعًا..

حين انفلتُ؛ قفزتُ..

فـي الزقـاقِ رمقنـي حسـن، ثـمَّ انفجـر ضاحـكًا؛ فصـرتُ فوقـه فـي ثـوانٍ.. رميتُـه، ومزقـت كرتـه، وحيـن سـمعت انفجارهـا؛ ارتـاح قلبـي.. أنـا أيضًـا أنهيـتُ أمـرًا حاسـمًا.

أمُّ حسـن السـمينة جـاءت تهـدُر.. رأيتُهـا عـن بعـدٍ علـى عتبتنـا؛ تقفُ، وتـدقُّ.. سمعتُ صيـاح أمّ حسـن السـمينة، ورأيـتُ أمـي مـن خلـفِ أبـي تحـرك يديهـا؛ فابتعـدتُ كثيـرًا.

أمّ حسـن هاتـه بعـد شـهورٍ سـتموت.. ونسـوة حارتنـا سيهمسـن علـى مسـمعي: قتلهـا أفيونـه.

هربـتُ إلـى الأحـراش.. أغوانـي رملُـه الأصفـر المنفـوش، والمنفـوشُ بأرجـل السـحالي، وناغتنـي مـن فوقـي بلابـل أشـجار الأكاسـيا.. تعمقـت، وهرولـتُ مبتهجًـا؛ أسـائل التـلالَ عـن آخـر

الدنيّا.. هناك وعند نهاية الدنيا؛ فاجأتني الكلاب.. من فوق تلةٍ عالية؛ رفعت آذانها، وأخفضتها، ثمَّ هوت نازلة..

لم أدر كيف جريت، ولا كيف نجوت.. ما أدريه فقط؛ أنّ وجهي انتفخ، وأنَّ عينيّ من كدمات الأغصان تورمتا.

عدتُ إلى الحارةِ، ولم أجرؤ على الاقتراب من بيتنا؛ فخطوت معاكسًا العمران.. هناك حيث شجر الجميز الواقف على حافة الطريق المؤديّة إلى غزة..

استقبلتني أشجارُ السبيل بلا حارسٍ.. ارتميتُ في ظلها الهائل، وشرعتُ أرقبُ ثمارها الصغيرة الحمراء..

في حارتنا سمعت النسوة دومًا يقلن: هذه شجرة الجميز شجرة نحسة.. هي من جلبت لنا يهود العالم. وسمعتهن يقلن: الحركة الصهيونيّة كانت تقول للمجلوبين؛ هناك ستجدون شجرة تحمل سبعة بطون.

لكني كنتُ جائعًا؛ فتسلقتُها.. ملأتُ بطني، وجيوبي، ولمّا نزلتُ؛ راقت على الأرضِ حبّاتٌ جفّت؛ فجمعُتها. في الليل حين كنت قرب بيتنا مثل لصٍّ صغير؛ أمسك بي أبي.. رجته أمّي، وكنت بيده معلّقًا... أنتظر قليلًا؛ ثمّ حذفني فجأة.. وأقسم لها أن يذبح فراخها كلّها. صرختْ هي لمرأى فراخها تقع من تحت سكينه واحدة من بعد أخرى.

لم أدر إن كانت أمّي قد ندمتْ على حمايتي، لكنّ ما أدريه فقط:

أن عقلي من لحظتها شرع يسأل:

كيف قتل الأفيون أمَّ حسن؟

ولمَ كانت الكرةُ المُذهبة علينا مستحيلةً؟

[61]

عذراء حارتنا

عـذراء مخيمِنـا ولـدت ولـدًا.. بـلا ترقـب ولا انتظـار، ولمّـا حـار النـاس، وسـؤال الشـكّ عـلا، خرجـت عـذراء حارتنـا بثيـاب بيضـاء إلـى العتبـة.

واثقـةً خرجـت، ترفـع ذراعيهـا، اقتربـوا، ربّمـا ارتجفـوا، أمّـا أنـا فاندفعـتُ..

رأيـت لحيـة شـيخ الحـارة تهتـزّ، وهـو يصيـح تحـت عصـاه المرتفعـة:

- من أبوه؟

لـم تتزعـزع، ورمتـه بعينيهـا، ثـمّ زمّـت شـفتيها، ولـم أدر أكانـت تعاتبـه، أم تغازلـه، ضحكـتْ، ثـمَّ قالـت:

- يا شيخ، هذا ابني بلا أب.

وتثنّت، وهيّ تفجر قنبلتها:

- هو مهديكم المنتظر.

رقص الشيخُ، وعصاه حامت، وماجت ساقاه في الدشداشة.

النسـوة ألغيـن الهمـس، وزغـردن، ثـم جريـن؛ ليعبـرن الكـوخ، ودخلـتُ لأراهـنّ؛ يلثمـن يديـه الدقيقتيـن، ويلامسـن لفافتـه.

فـي اليـوم التالـي زحـف اللاجئـون إلـى محـرر البـلاد، ليجـدوا أمّـه تسـتقبلهم، وتـوزع هدايـا السـماء.

هذا منديلٌ من أمّنا عائشة.

وذاك من السّيدة زينب.
ومن أمّ المسيح زجاجة عطر فوّاح.
ضـجّ النـاس لـكلّ منديـل، وفـي الأركان المجـاورة؛ هزجـوا فـي حلقـات.
أنـا عقلـي طـار، صـرتُ صرصـارًا فـي حارتنـا الصغيـرة التـي اندفقـت عليهـا الحـارات.
شـارعنا الترابـيّ ظـلّ يأتيـه كلّ مـن هـبّ ودبّ، حتـى جاءتنـا فجـأة موتوسيكلات تحـوّط سيارة طويلـة، عفرتنـا عجلاتُهـا المزمجـرة.
ولهثـت أنـا، ورأيـت رجـلًا هائـلًا نـزل.. ثـمَّ سـمعت المتراجعيـن يقولـون: الحاكـم.
تسـللت بيـن الأرجـل، وتقرّبـتُ، وصـرتُ بيـن سـاقيّ الحاكـم.. رأيـت خديـه الكبيريـن، وكان ينظـر إلـى المهـدي، وكان المهـدي يتمطـى؛ ثـم يمـوء.. تثنّـت عـذراء حارتنـا، و ماجت ذراعاهـا علـى خاصرتيهـا، لكـنّ الحاكـم المصـريّ صـاح، وقـال كلامًـا قبيحًـا، ثـمّ مضـى مـع موكبـه.
ودهشت أنا من أمّ المهدي التي طأطأت.
حارتنـا هـدأت، عـادت خاليـة، إلا مـن أهلهـا.. أقعـى الرجـال تحـت جـدران الأكـواخ واجميـن، والشـبان ظلـوا ينقّلـون عيونًـا مترصـدةً علـى العتبـة، وأمّـا النسـوة فعـدن يرقعـن ملابسـنا، ويرقبـن موعـد اسـتلام تمويـن الأمـم المتحـدة.
وأنـا عـدتُ فـرخَ نسـرٍ، أهاجـم فـي النهـار الرمـل، وفـي المسـاء أحـدّقُ فـي قمـر البـلاد.

[62]

محمود

قصير، بدين نوعًا ما، رأسه كبير بشعر منفوش، وبعينين واسعتين، يشوب بياضهما حمرة دائمة، وبأنف ضخم فيه اعوجاج، ورقبة قصيرة، تكاد لا ترى، على كتفين غير متقابلين.
ذاك محمود الذي كان يمتهن السير في أزقة حارتنا، ليطلق صوتًا كالعويل، معتقدًا أنه يغني، وأن الناس بصوته معجبة، ويردد مقطعًا لا يتغير، يلقي به على مسامع من هم خلف الجدران، ثم يتوقف، ليعاود الأمر مستمتعًا، والناس في البيوت غالبًا ما يبتسمون معلقين: هذا محمود. عاد محمود. يخرب بيتك يا محمود..
ومحمود يردد: على حسب وداد قلبي يا بوي..
وكثيرًا ما كان يتوقف على كل باب؛ ليلقي مقطعه كنفار مكلف.. إلى أن غاب، ولم يعد، حتى جاء خبره؛ أنه قد عُثر عليه مضرجًا بدمائه، ومشهرًا ذراعيه على الإسفلت مشكلًا صليبًا.. علم الناس أن الدورية كانت أردته، لكن ما لم تعلمه حتى اليوم؛ دافع الضابط لقتل محمود..
انتشرت الأقاويل، منهم من قال: إن محمودًا توسط الإسفلت، وأطلق فيهم صوته، وإن الخلق تضاحكوا، فاغتاظ الضابط، وأطلق رصاصة على الجمجمة المهتزة..
قالوا: إن محمودًا تمايل، ثم سقط فاردًا ذراعيه.

وقالوا إن آخر ما غناه: وأنا راضي بالمكتوب. ثم هوى ليرسم الصليب.

لكنّ ثمة شهودًا آخرين قالوا:

محمود لم يغنِّ، فقط أوقفهم.

وهناك من قال: إنّه حاول أن يتحدث.

وأن ثمة خطابًا كان على وشك أن يلقيه..

وقالوا، وقالوا، لكن الأهم من كل هذا وذاك؛ أن صوت محمود عن حارتنا غاب.. وأن محمودًا قد مات.

[63]

الدكنجي

لم أك أتصور سبب تسميته بهذا الاسم..
كان بلا دكان، وبلا بضاعة، يتجول، ويطوف واضعًا قبضتيه في جيبيه، يهز كتفيه، قصيرًا مهندمًا مبديًا وقارًا.
وكنت أرقب هيئته، وهو يعبر، وأتسمع التعقيب الدائم:
- الدكنجي.
ويسرح خاطري في الاحتمالات..
هل امتلك -من قبل- دكانًا؟
أم كان تاجرًا، فقد تجارته؟
وشرعت في وضع الأسباب.
وتعاطفت، وحزنت، ورددت عليه تحيته خاشعًا.
إلى أن جاء يوم، ومر..
هز الكتفين، وطرح السلام، ولما تجاوزنا؛ تجرأت، وسألت عن سبب تسميته بهذا الاسم؟
فأجابني مجاوري وهو يرمق خطوه بإعجاب:
هذا الرجل لم يعجزه يومًا قفل دكان.

[64]

الجمعُ الجليل

وبينما كنتُ المحدّقَ في دَكَنِ السماء، ويهتف هاتفٌ، ويصدح غامضٌ، ويثغثغ طلسمٌ حطّ عن جناح؛ لاح جمعٌ تتابعَ، فأغرقتُ في تحديقٍ، وتمعنتُ؛ حتى تقدّم المعريّ، وصار ملكَ العين، فوجدته شحب، وهو يستقبلُ الجاحظَ، وأبا ذرٍ، وقد أتيا مع أقلامٍ، وقوارير، فصحتُ أو كدتُ، ولدهشتي ما تبينتُ وجوه بقية الجمع، إلى أن بادر المعريُّ برفعِ عصاه، وصار معها يروحُ ويجيء، فإذ به أعظمُ مايسترو، والجمعُ فريقُ منشدين، ولقد هززتُ جذعي في جذلٍ، والمعريّ مبصرٌ يوزعُ الابتسامات، وبدأت الملامحُ تنجلي، واللحى تضيء.. ذاك الحسينُ يحتضنُ المسيح، وذاك طه حسين يبرقُ بعينيه لمارتن آرثر، وأما غاندي الذي جاء يهرولُ مع معزتِه؛ فلقد اتسعت سحنته، وكانت عيناه من تحت عويناتِه تتلمسان الرؤوس.

وأنا -ومن فرطِ دهشتي- فقد كنتُ أتحولُ تباعًا من يرقةٍ إلى فراشةٍ إلى طيرِ حسون.. ولقد وجدتني أردد مع الجمعِ الجليل نشيدًا توالدته الحلوق للتوّ.

كنّا تحت سماءٍ ملبدةٍ بكحليٍّ خالطه لونُ الرصاص جمعا من المتسقين، كنا جوقةً تعتلي، وكلما استفضنا؛ كانت السماءُ تنبلجُ، وبشائر الضوء تأتي في قطوف.

وإن كنت الملتبس؛ أنشدو، أم نستجير؛ لكن الذي تيقنته؛ أن السماءَ تفتحت، وأننا عبرناها في تحليق، وقد شرعت تقطرُ بالفرح.

[65]

نشيدُ الوَداع

عندما تعلقت المروحيّةُ؛ غمرتني دهشةُ الحالمين..
على نافذة الفصل؛ رأيتها
دقّقتُ، وتمحصتُ، ونقّلتُ بصري..
تيقنــتُ ممــا أرى؛ عندمــا شــهق الصغــارُ، ثــمّ شــرعوا جماعــةً بالتصفيــق.
كانت هائلةَ، تؤرجحُ هيكلها..
لــم ينتبنــي هلــعٌ، بــل راحــةٌ، وجــذل، كذلــك الصغــارُ الذيــن بــدوا مرحبيــن، وهــي تــزنُّ كدبّــورٍ عمــلاقٍ آتٍ مــن عالــمٍ مخبــوءٍ خلــف الغيــم..
كانت رسولًا متشحًا بضبابٍ سقط من الغيب.
أشــرقت الشــمسُ، وجــاء نــورٌ، لــم نــره مــن قبــلُ، أضــاء فولاذهــا الفضــيّ.
وأمّــا أجنحــةُ مروحتهــا التــي دارت ببطءٍ؛ فقد تفتحــت، حتــى غــدت كفراشــاتٍ تتلاحــقُ، وتلتهــمُ الضــوءَ؛ ثــمّ تنثــره ألوانًــا.
حــرتُ فــي فرحــي، وحــرتُ فــي دهشــتي، والصغــارُ ينســحبون مــن مقاعدِهــم، راضيــن، إلــى حيــثُ يــدٌ مــن فوقهــم تمتــدُّ، وتتناولهــم تباعًــا..
جاءت بقيّةُ الفصول، وتكاثر الصغارُ.
عجبــتُ للصاعديــن، وهــم يلوّحــون، وقــد تعلّقــوا بالنوافــذِ، وفــوق

الأجنحـةِ، كانـوا هانئيـن كذاهبيـن إلـى بيـوتٍ يعرفونهـا..
كان الناظـرُ يلـوّحُ، وكذلـك المعلمـون.. وهـرول الآذنُ، ومـن خلفـه تدفـق الأهالـي..
كانـوا يتلقطـون النـورَ الهابـطَ، وكنـتُ أنـا فـي بـابِ الفصـلِ؛ أغـرقُ فـي دمعـي، وكان الدمـعُ يسـري فـي بـكاءٍ عجيـبٍ، لا حـزن فيـه.. بـكاءِ راحـةٍ لـم يمرّ علـى بنـي البشـر..
شـرع الأولادُ -مـن فوقنـا- يغنّـون عبـر النوافـذِ، وعلـى الأجنحـة، تصحبهـم موسـيقى سـاحرة.
وكنَّا رهطَ مودّعين..
واقتربـت الشـمسُ، وصفّقنـا، وهـي تشـكّلُ عينًـا سـاحرةً، وتُنبـتُ ذراعيـن، وتمـدُّ كفيـن.
وبينما كانت المروحيّة تصعدُ؛ كنَّا جوقةَ منشدين..
أنشدنا للمحلقين..
للموكبِ العالي الذي غدا قرصًا ضوئيًّا، يدور.
وحينما ابتلعت الشمسُ القرصَ؛ أنشدنا مثل كورالٍ سماويّ:
دخل الصغارُ الشمس..
عادوا إلى أفرشةِ الضوء..
وكنّا نلوّح، ونهتزُّ موغلين في الدمع..
وكنتُ لم أدرِ؛ أواقفٌ أنا، أم أنني أطير...

[66]

صبيُّ الرّيح

تصلُ الريحُ رفوفَ حمام.. تحطُّ على الوجنات. ويقولُ الناسُ:
ما شاء الله.
تغتسلُ الدنيا، وتشهقُ الأكواخ.
يتسلقُ المهاجرون أسطحَ الصفيح، ويتنادون، وهم يفردون النايلون، ويربطونه على الثقوب.
عندها يصعدُ صبيُّ الريحِ التلال، هناك يشهرُ ذراعيه.. سبّاقًا في عناقِها، متمتعًا بشدتها، وقد انغلقت صرصرًا خالطها التراب.
في خضمِها يقهقه صبيُّ الريح، ويأخذه الوجدُ؛ فيصيح: زيدي.
يكابدُ رضيًّا، وكلما خبطته؛ هاج، وترنح هائمًا بزغردة الريح.
فإذا ما انقشعَت؛ بحث عن أنفاسِه، ولمّ جسدَه، وشرع في قطافِه، وقد غدا طيرَ حجل؛ يتقافزُ على بحيرةِ رملٍ مضيء.
وتراه قد جمعَ في مخلاة صدره ما تسنى من كشف حراث الريح.
في صحنِ كوخِه يفرغ حمولته، ويشرع في التنقيب.
فإذا ما خاب؛ نحّى نتفَ الحديد، والزلف، والزّجاج؛ ثمّ قامَ، ومن جديد عاد رمق التلال، ومكث مبتسمًا في انتظارِ العاصفة القادمة.

[67]

وليمة

هبط الأعمى وهو يقسمُ؛ ألا يقوم -بعد الآن- من قبلِ السؤال عن مذبوح الوليمة.

ارتخىَ على باب الجامع؛ يتحسسُ الأرض، وهو يقول: بالأمس كان علينا أن نسأل.

ردَّ الأعرجُ وهو يمدّدُ ساقه: صدقت.

أمّا صاحبُ الظهرِ المنحني فقد شرع يخطُّ مربعات التراب، وهو يقول: كرهتُ لحمَ دجاج الجنازات.

قال الأعمى: انظروا ترنحَ الأولاد.

ثمَّ أكمل مثل حكيمٍ: أليسوا أبناءَ بيئتِهم، وطعامهم يشكلُهم؟

ردَّ الأعرج: هه... ها نحن يشكّلُنا العَلَف المُصَنّع.

لحظاتٍ وعلا الصياح، كان الأعمى يقتحمُ المربعات بحصاه، ويهزأُ ساخرًا، وهو ينَحّي حَصَى الأعرج جانبًا، والأخيرُ يتوَّعده، فيرتفعُ صوتُ الأعمى ممطوطًا: العب يا غشيم.

أمَّا أبو الظهرِ المنحني؛ فكان يقهقه مستلقيًّا، وهو يزيحُ بكمِّه لعابَه!

استفاق الثلاثة فجأةً على نبوت فارسٍ، وحصاهم تتناثر مع التراب، وقف فارسٌ لعيونِهم الشاخصة صامتًا؛ إلى أن همس:

ماتت أمّي.

ثمَّ صاح: قوموا، اتلوا، ثمَّ ادعوا.

نهضـوا بجَهـدٍ، ليجرُّوا أجسـادهم، ولمَّـا قاربـوا عربـةَ البغل؛ شـرع فـارسٌ يرفعهـم واحـدًا إثـر الآخـر مثـل جـوالات تبـنٍ، ويلقـي بهـم إلـى مسـطح العربـة، ولمَّـا انتهـى؛ قفـز، وهـو يلكـزُ مؤخـرة البغـل بنبوتِـه، فهرولـتِ العربـةُ، وهـم علـى خشـبِها مُلقـوَن مثـل جثـثٍ مترنحـة!

في صحن بيتِه؛ رفع نبوته، وقال: هنا.. اقعدوا، واقرؤوا.

ارتمـوا متلاصقيـن، ثـمَّ شـرعوا كفريـقٍ أصابـه النحـسُ؛ يتلـون الآيـاتِ بصـوتٍ أجـشّ مـوزون، أمّـا فـارس فـكان قـد افتـرش حصيـرةً قبالتهـم، فـي تـارةٍ يرقبُهـم، وفـي أخـرى يرفـع كفَّيـه إلـى السـماء، واسـتمر الحـال علـى هـذا، كلمّـا همّـوا بالتريـث، صـاح هـو: اقـرؤوا، فيعـودون للتـلاوة مذعوريـن، إلـى أن هـبَّ فـارسٌ، فرفـع نبوتـه، ثـمَّ هـزّه، كمـن ينهـي طقـس عبـور أمّـه إلـى الجنَّـة، ثمّ غادرهـم عابـرًا قلـب الـدار، ففركـوا الأكـفَّ، وأطلقـوا التنهيـدات، وأمعاؤهـم بـدأت تحلـمُ بالمائـدة القادمـة، وألسـنةُ عقولِهـم تـردّدُ: ضـأنٌ.. أم.. عجـل.. حتـى عـاد الرجـل بقـدرٍ، أنزلـه بيـن سـيقانهم، وهـو يقـولُ بصـوتٍ خفيـض: كلُـوا.

تقاربـوا مـن بخـار الوعـاء، ثـمَّ تراجعـوا، فـدقَّ فـارسُ الأرض بنبوتِـه، وهـو يصيـحُ:

كُلوا.

ارتعشت بطـون أكفهـم، وسـاد صمـتٌ، قطعـه الأعمـى بصـوتٍ يشـبه ضربـةَ سـكين: قمـح مجـروش!

ثم عاد: قمحٌ فقط!.. مطبوخٌ بمرقِ مصانع اليهود.

ولمّـا همّ فـارسٌ بالقيـام؛ تسـارعت أذرعُ الأعـرج، وأبـي الظهـر المنحنـي إلـى القـدر... وكان الأعـرجُ يوشـوشُ الأعمـى: كلْ.. يحـركُ نبوتَـه!

صـارت الأكـفُّ تغـرفُ، والعيـونُ تدمـع، وحتـى عينـا فـارس، كانتـا تدمعـان؛ وهـو يرفـعُ كفيـه مـع شـفتيه إلـى السـماء، ويتمتـم: اللهـم تقبـل..

[68]

مغادرة..

قبل الموتِ؛ حفرتُ حفرتي..
اخترتُ موطن مأواي الأخير، والتعرف إليه راقني.
شُـدِه الحــارس؛ حيـن علـم أنّ تلـك الحفـرة مـا هــي إلا حفرتـــي، فباعـد المسـافة التـي بيننـا، وقـد اتسـعت عينـاه، وعـلا جبينـه، حتـى أيقـن أنّ الأمـرَ جـديٌّ، وأننــي لـن أشـجّ رأسَـه بالفـأس؛ وشـرع بمناولتــي آخـر قطـع البـلاط.
نقدته ما في جيبي، وقلت: احفظ قبري يا أخي.
لـم أتـرك الأمـرَ عنـد هـذا؛ بـل غـدوتُ أهـرولُ خلـف الجنـازات، فأشـاركهم الطقـوسَ، وأتمعـنُ فــي الوجـوه، وأخمـنُ مـن منهـم؛ سـيهرولُ خلـف نعشــي.
كنت أقول: شارك غيرك؛ غدًا فيك يشتركون.
بعـد الجنــازاتِ؛ لـم أكُ متعجـلًا فــي مبارحــةِ المقبـرة، بـل فــي نهايـاتِ كلّ مراسـم؛ كنـت أنـزوي، فـإذا مـا غـادر جمعٌ، وعـاود الصمــتُ؛ نهضــتُ، ثـمّ خطـوتُ، وتتبعـتُ المعالـمَ، مـن شـواهد، وشـوكٍ، وشـجيرات، حتــى إذا مـا وصلــتُ؛ وقفـتُ أمـام قبـري، وخشـعتُ كمـن يقـف ببـابِ ولــيّ.. فـإذا مـا صحـوتُ؛ انثنيــتُ، فنزعـتُ بلاطتــي، وقصـدتُ مدخلــي، ثـمّ دلفـتُ مخضعًـا رأســي، وتمـددتُ علـى رملـي؛ لأشـرعَ فـي رحلـةِ تشـممِ رطوبـةِ حفرتـي، ومراقبـةِ صغـار الحشـرات المتهيئـة، والمتلاحقـة فـي صعـودٍ، وفـي

هبوط على شقوقِ صفوف الطوب التي كنت رصصتها.
هكذا سار الأمرُ، وأنا أسبرُ غورَ القادم، وأرى جسدي المتمدّد، وأربطتي المنحلة على مواضع كفني.
كنتُ أظلّ على هذا ساعةً، فإذا ما ارتويتُ، واستكان قلبي؛ قمتُ متثاقلًا، وخرجت راضيًا، ثمّ أعدتُ بلاطتي، لأمضيَ نحو الحارس الذي يقدّم خطوةً، ويؤخرُ أخرى، وهو يلتقطُ دراهمي، ثمّ يفرُّ، ويلتفتُ، وأنا أغادرُ نافضًا الرملَ العالقَ بجلبابي.
وسرعان ما حان حيني، فمِت آمنًا؛ وقد مسّني حبورٌ، واكتنفتني غبطةٌ، وأخذتُ أرقبُ مراسمي.
كانوا يمرونَ صامتينَ بالقبور، وكنتُ من فوقهم أتأرجحُ، وأشيرُ، وأصيحُ:
من هنا.. من هنا.. كفى.. هنا.
ولكم كانت فجيعتي؛ وهم يتجاوزونَ قبري، والحارسُ يقفُ متنحيًا، قربه رجلٌ أنيقٌ مبتسم؛ يرمقُ تجهمي، ثمّ يخرجُ لسانه؛ ويحرّكه.

[69]

اجتماع

شاخ الأسدُ، حتى انثنى، ولم يقوَ على مغادرةِ عرينَه، فاجتمعت الحيوانات ترمقه.

كانت عينا الذئبِ ترميان شررًا؛ وقد تذكر فرائسه التي سُلبت، أمّا الضبع فلم يكُن يفكّر في غير ما يفكّر فيه الذئبُ، ووقف على قُربٍ يحكُّ بجذعِ شجرةٍ أنيابه، أمّا الفيلُ فقد تفقد بقايا نابه العاجيّ الذي تبقى له من آخر مشاجرة..

فقط الثعلبُ اقترب.. مشى مختالًا؛ حتى كاد يلامس الجسدَ الهرم، ثمَّ توقف، وابتسم.

كان الثعلبُ فقط المالكَ لفنِّ الابتسام، حتى أنّه قال وهو يرفع ذراعه إلى بطن الأسد؛ ليتحسسها:

لا بأس عليك مليكنا.

ثم قال: غدًا أصطادُ، وآتيك بالطعام.

كانت المرة الأولى التي يلامس فيها ثعلبٌ بطن أسد.

وكان في نفسه قد قال: كم هذه البطن قد التهمت..

وكان الأسد يعلم ما يدور.. فهم نظرات الذئب، والضبع، والفيل..

وسخرية الثعلب كادت تقتله.

وكانوا كلهم يرقبون..

وكان الأسدُ يبكي في داخلِه..

بكى الأسدُ مدرارًا؛ لكنْ في داخلِه..

بكى ونسور السماء من فوقِه بدأت تحوم، وشرعت تهبط، ثم تقترب..

[70]

طحين

عندما مرّ؛ راودني إحساس أنني أعرفه.. القامة المديدة، وإن انحنت، الشعر الفحمي، وإن تجعد، والحدقتان اللتان كانتا تشعان؛ نادتاني، وإن انطفأتا..

قلت: من؟

واستدعيت الزمان، وانهالت الصور، وظللت عاجزًا عن التقاطه.. وقف يتأملني، ثم همس، وهو يشد على يدي: تغيرت كثيرًا.

عندما سمعت الصوت؛ صحت: إبراهيم!

وجاءتني آخر صورة؛ وهو عائد مطأطئًا، ويقول:

هربنا من الجبهة؛ وعبروا.

وعاد عويل النساء.

وعادت السماء أظلمت.

وعدت أصيح: إبراهيم!

وعادت عيناه المنطفئتان؛ تعتصران قطرات اللهب.

وهو يقول:

ليس في بيتي عجنة طحين.

[71]

ابن داود في حارتنا

كانوا يسمونه: طبيب حارتنا.

وكان مستمتعًا باللقب، وهو يدور كأم تتفقدنا، ينقّل جسده العريض المائل في الأزقة، وما بين جلسات شمس الصبح، وفيء الظهيرة؛ يعود الناس كأنهم مرضاه، فيوزع الوصفات، ثم يتبعها:

قرأتها في تذكرة ابن داود.

جاءني ذات مرة، وكان لا بد أن أشكو أمرًا ألمّ بي، ألم يكن نعمة خص الله بها حارتنا؟

وصلني خطوه حتى حطّ قبالتي، قلت:

أتعبني البول.

رمقني، حتى شعرت أنه شخّص مرضي، إلى أن مدّ إصبعه الغليظ، وقال وهو يحركه:

بُل بعد الجماع ولو بقطرة.

وامشِ بعد الطعام ولو بخطوة.

ثم أكمل وهو يعزم على الرحيل:

هذا ما قاله ابن داود.

ثم مد ساقًا سهلة الخطو، وفي الثانية

-وكأني أرى خطوه للوهلة الأولى-

رأيته ينقلها عاليًا، كمن ينوي القفز، ثم يهوي بها كمن يتخلص من حملٍ ثقيل.

[72]

تعاضد

جارنـا عبـد الوهـاب سـاءته أحـوال الأرامـل، واليتامـى، فأقسـم أن يمـدّ يـد العـون لـكل محتـاجٍ، وأن يغيـظ ذاك العقيـد المتكبّـر، الـذي يمـرّ رافعًـا أنفـه، ويأنـف حتـى عـن طـرح السـلام.

نشـر عبـد الوهـاب مناشـدة أدمـت قلـوب البعـض ممـن خلـف الحـدود، ومـا هـي إلا أسـابيع؛ حتـى وصلـت كفـه دفعـة مـال محترمـة، فترقرقـت عينـا عبـد الوهـاب للشـيك القـادم، وطـرب قلبـه لنجـاح سـعيه.. فكّـر فـي أيّ قلـوب مـن الجيـران يُسـعد، ومـن بعـد طـول تفكيـر؛ قـرر أن يبـدأ بإغاظـة العقيـد المتكبـر، فاشـترى عربـة جيـب بيضـاء تلمـع فـي الشـمس، وصـار يـروح بهـا ويجـيء عـن بـاب العقيـد.. والعقيـد يتأملـه، ويفكّـر..

بعـد أيـام قليلـة وصـل الشـيك الثانـي، فقلّبـه طويـلًا، وقـال: ليسـت ابنـة العقيـد بأفضـل مـن ابنتـي، فاشـترى لهـا «كيـا» وصـارت ابنتـه تمـر عـن بـاب العقيـد، والعقيـد يتأملهـا، ويفكّـر. مـع وصـول الشـيك الثالـث صـاح عبـد الوهـاب للرقـم الآتـي، وقـال: الآن سـأبني فيـلا أجمـل مـن فيـلا العقيـد، فلـم يكـن يومًـا ذاك المتغطـرس حامـل الابتدائيـة أذكـى منـي. وعلـى الفـور اسـتقدم أمهـر البنائيـن، وشـرعوا بهـدم بيتـه، لينشـئوا بنايـة أجمـل بكثيـر مـن بنايـة العقيـد.. وكان عبـد الوهـاب يقـف ويشـير علـى العامليـن، وجـاره العقيـد

يتأملـه ويفكّـر..

وظلـت الشـيكات تأتـي عبـد الوهـاب، وعبـد الوهـاب ينتفـخ، ويرفـع أنفـه؛ ليعلـو عـن أنـف العقيـد، والعقيـد علـى بـاب فيلتـه؛ ينفـخ دخـان نارجيلتـه.. ويتأمـل عبـد الوهـاب ويفكّـر..

[73]

ظهرُ جدتي..

في طفولتي كنتُ حائرا في أمرِ ظهرِها الذي ينحني إلى شكل زاويةٍ قائمة، وكانت حيرتي تشتدّ كلما أمَّي تقول:

من اليهود.

وتتدافعُ صورُ عسكرٍ يثنون ظهر جدتي الصبيّة..

قالت أمي: جدك هاجر إلى الخليل من بعد طردِه من المجدل.

سنة فقط، نصب نوله في بيت أمر، ثمّ دهمه السرطان، فتسلل بعائلته راغبًا الموت جوارنا في غزة، جاءنا مريضًا يقودُ زوجه المنحنية عبر ممر الجبال، معهما أخوالك الثلاثة..

كانت أمّي تقول: اليهود. ولا تزيدني، وكنت أرقبُ جدتي بوجهها المريمي، ناصعًا صافيًا، وأستمع لطريقتها في لفظ الحروف وهي تخاطبني، فأخاطبها بلساني، وعقلي شاردٌ في سبب انكسار ظهرها..

كثيرًا ما تخيلت الجند يقصفونها بالعصي، أو يدقونها بأعقاب البنادق، وتصورت ضابطًا يأمر: كفى. من بعد سماعه لفرقعة عمودها الفقري، حتى جاء يوم كنت فيه مع رفقتي، جاءت جدتي زقاقنا، ظهرها منكسر، ووجهها في الأرض، يرمقُ التراب، هرولتُ لأمسك بيدها، وأستمعُ إلى دعائها الرب: أن

يحفظنـــي. ولمـا قدتهـا، وجدتنـــي أسـارعُ بالسـؤال: جدتـــي، كيـف كسـر اليهـودُ ظهـرَك؟

رمتنـــي بنظـرة، وخلــتُ عينيهــا الزرقاويــن ترقرقــان دمعتيــن، صمـتُ فـي حضـرة صمتِهـا، إلـى أن ألقـت بجسـدها النحيـل علـى فرشـةِ فنـاء كوخنـا الصغيـر، دارت بعينيهـا، وسـألتني عـن أمِّـي.

قلـت: أمـي فـي سوق المخيـم. فوجدتهـا، تأمرنـي بالهبـوط جوارهـا، لأكتشـف رغبتهـا بالـكلام.

قالت جدتي، وقد اعتدل ظهرها لبرهةٍ:

كنـا فـي حظـر تجـوال، وقـد جمعونـا كلنـا نحـن المتبقيـن فـي حـارة واحـدةٍ مـن حـاراتِ المجـدل..

من بعد تنهيدة، أكملت:

كنـا سـتة، أنـا وجـدك، وأخوالـك الأربعـة، وطـال الأمـر، وامتـدّ الحظـرُ أسـبوعًا كامـلًا، فـي اليـوم السـابع، خالـك الرضيـع انطلـق يبكـي، صـاحَ بتواصـلٍ، كمـن ينـادي القـدر.

صمتـت جدتـي، صمتـت طويـلًا، وأنـا مأخـوذ للآتـي، كنـت أعلـمُ بهـولِ مـا سـتلقيه علـى مسـمعي.

قالـت: فجـأة، وبـدون حسـاب، وجدنـا خالـك الأكبـر يحمـل أخـاه، ليفتـح البـاب، كان ينـوي إسـكات أخيـه مـع رؤيـة مشـهد الشـمس والهـواء..

واهتزّت كمن يسمعُ بالأمر، ويراه للمرة الأولى:

فتح خالك باب الدار، وسمعنا الرصاصة.

قالت: رأينا الاثنين يهويان على العتبة.

ورأيتُ اختناقها، والدنيا إلى النواح تعود، وحممًا تهوي.

قالـت: فـي دقيقـةٍ وصلـوا، سـحبوا جثـة خالـك إلينـا، ثـمَّ أغلقـوا البـاب، فانثنيـتُ أتحسـسُ عينيـه، انثنيـتُ، ومـن بعدِهـا لـم يرتفـع ظهـري..

وشهقت، لتقول:

عادوا بأربعةٍ، وبأربعة معاول.. سحبوه، ليدفنوه هناك بصمت..

قالـت جدتـي: دفنـوه، ثـمّ طردونـا كلنـا، وكان ظهـري قـد تيبـس، ووجهـي انحنـى إلـى الأرض.

[74]

حكايةُ الأستاذ عبد البديع

كان الأستاذ عبد البديع إذا ما جلسَ؛ أطرَفَ، بقميصِهِ الفضفاض، وبرأسِهِ المنفوش، ثمَّ انكفأ، يأخذُ الأنفاسَ، وينفثها، ومع كلِّ نَفَسٍ يسحبه؛ يمسحُ دمعه بكمّيه، ويُنقّلُ عينيه بين الوجوه، لا يبدي رضى عن حديثٍ، أو امتعاضًا، فقط يسعلُ، ويدخن، وإن نصحه معلمٌ بتركِ التدخين؛ غادرَ صمته مثل ملسوعٍ، وكمستجيرٍ صاح:

هه.. وماذا نفعلُ من بعدِها؟

وإذا ما دقَّ جرسُ درسِه؛ قام متثاقلًا، ليخطو كمن يزحفُ اتجاه حتفِه، يستقبله دقُّ المقاعدِ، والغناء، فيتعثرُ الأستاذُ عبد البديع، يتعثرُ، أو يكاد، قبل أن يصلَ، ليعبرَ باب جهنم، ويمارسَ هجمتَه مثل ثورٍ جريح، يصفعُ طالبًا هنا، ويبصقُ على آخر هناك، لكنَّ الضجيجَ يستعرُ، والقيامةَ تقوم إلى أن يأتيَ المدير.

تنقّل الأستاذ عبد البديع، بدلّوا له الفصولَ كلّها، وبدَّلوا الجداول على مدار العام، حتى المواد التي يعلمها؛ كانوا يخيّرونه فيها، من الرياضيات حتى التاريخ.. لكنّه ظلّ حالةً فريدةً تُستقبلُ مع كلّ درسٍ بالاحتفاء المجنون.

فجأةً تغيّب الأستاذ عبد البديع.. وطال غيابُه، وتقوّلت التلاميذ؛ قالوا وهم يتضاحكون: إنّه تزوّج، وقالوا: جُنَّ، وقالوا: اعتقله اليهود، ثمّ انتشرت شائعةٌ أنّه مات!

ذات صبحٍ، قبل بدءِ الطابور، عبرَ البوابةَ شخصٌ مهندمٌ يحملُ حقيبةً، جاء عابس الوجه معتدلًا.. وما هي إلا لحظة، حتى سقطت غيمةُ دهشةٍ على المدرسة، كان العابرُ الأستاذ عبد البديع، هو ذاتُه، مسرحَ الشعرِ، ببذلةٍ سوداء، ارتفعت ذراعُه، وألقت تحيَّة، ثمَّ شرع بفتح حقيبته الكبيرة.. انعقدت الألسنة، وهو يستخرجُ خيرزانة رفيعةً مُطوّاة، ثمَّ وهو ينفضها، لتتوثب، وتفحَّ مثل أفعى في الهواءِ، كان يدورُ على المحيطين، كوحشٍ يبحث عن صيدِه، ولمّا لم يجدْه؛ خطا، لوّح بالخيرزانة مرتين، ثمّ طوّح بها على ظهر تلميذ، فتثنى الولدُ، ثمَّ سقط على أرضِ الفناء، بعدها قارب الأستاذُ عبد البديع موضع الجرس، دقّه وعيناهُ تومضان؛ فتسارعَ الطابورُ إلى الانتظام، ثمَّ حلَّق للحظاتٍ طائرُ صمت... مشى الأستاذُ عبد البديع، مشى.. ثمَّ التقطَ مكبرَ الصوتِ، وبصوتٍ ثابتٍ رخيمٍ بدأ يلقي خطبةً في أهميَّة الأخلاق!

[75]

خلف بيتي ذئب...

هكذا..

لـم أذهـبْ إليـه؛ فجـاء.. لـم أمثـلْ قبالتـه متفرجًـا؛ فاقتحـم هـو غازيًـا، لـم أرقـب أنيابـه، ولا دورانـه اللانهائـيّ داخـل قفصِـه؛ فهـبَّ لعينـي مثـل قـدر..

أنـا الزاهـد دنيانـا، المعتكـفُ منـذ عقـود، أمـارسُ تحديقـي فـي سقفي، وأرقـبُ نجمـي الآتـي؛ تأتينـي الآن مـن خلـقِ الله الذئـابُ... كنـتُ تنعمـتُ بقيلولـةٍ تحـت نافـذةٍ تُسـربُ شمسًـا دافئـة، حيـن هببتُ؛ أستكشـفُ سـرّ القيامـةِ التـي قامت..

عشـراتُ الصِّبيـانِ كانـوا يهرولـون فـوق شـتلاتِ الزيتـون.. صحـتُ، فصاحـوا، وعجبـتُ للحشـد المتعاظـم تحتـي، وفـوق سـورِ حديقـة بيتـي.

عدتُ أصيح؛ فصاحوا: ذئب..!

جالـت عينـاي لأفهـم؛ فرأيتُـه بـأمِّ عينـيّ، رمقنـي بعينيـن صفراويـن، ودار بأنيـابٍ مُشـرعة... لـم أذهـب أنـا إلـى قفصِـه؛ فجاءنـي هـو.

لـمْ يُجـدِ اعتكافـي، ولـم تنفعنـي عزلتـي، وهـا هـي الحشـودُ، وذئـبٌ حقيقـيّ يحـركُ أنيـابَ فكّيـه...

قلـتُ: سـتأتي الشـرطةُ إذًا.. وربمـا الدفـاع المدني، وخمنتهم سيلقون شـباكًا، ويطلقـون سـهامًا، قبـل أن يفعلهـا هـذا الذئـبُ؛ فيعبـرُ بيتًـا، ويلتهـم طفـلًا، أو ذراع عجـوز مسـتلقية سـارحة فـي ملكـوت الله..

كان الحشدُ بين الشتلات يموجُ، وكان رأسُ الذئبِ المحشور بين الحشد والسور يدور، ويطلقُ عواءً تقشعر له الأبدان.. أمّا الصبيّة فتحلقوا، يتصايحون، لا يقاربونه، ولا يتباعدون...
وأنا هناك، كنتُ على النافذةِ معلقًا في الانتظار؛ إلى أن مضى الذئبُ.. مضى بقرارِه، كأنّه فهم أن الأمر طال.. مضى راضيًا، والحشدُ أمامَه ولى الأدبار..
أين مضى الذئب.. من يعرفُ أين مضى.. نزلتُ كالمُنتَهك، ثمَّ غادرتُ لأقوّم اعوجاج الأشجار...

[76]

الديكُ الذي أضحى دودة...

فـي دار المخيـم نمـا، لكنَّـه جـاء معقوفًـا، بـرأسٍ دقيـقٍ، يتقدمـه عُـرفٌ عـالٍ؛ يطلقُـه لريـحٍ، ولغيـرِ ريـح، يحـدِّبُ أنفـه كمنقـار، ويحنـي عـودهُ قليـلًا؛ ليريـحَ ظهـرَهُ النحيـل..

يناديه الصغارُ: يا ديك

وجـارُهُ «المنسـيّ» يحـركُ رأسَ جثتِـه المُمـدّدة فـي الزقـاق؛ كلمـا قـال:

أهلًا ديك... تفضلْ يا ديك..

لكنْ أن يصبحَ دودةً!

هذا الذي أطار عقلَه، وأغرق عينيهِ في سحابةِ سَوَاد...

أنْ يتمنـى نعمـةَ ابنـةَ المنسـيّ، وهـي لا تتمنـاه.. يرسـل خيالـه؛ لوقـعِ خطوِهـا علـى صحـن الـدار، يلتقطهـا؛ وهـي تـردُّ علـى طلبـات أبيهـا المتكـررة للشـاي.

أن يمشـي كرجـلٍ صـار ديـكًا، أو يتقـوّس كديـكٍ كان رجـلًا، وأَنْ يهـربَ كلمـا انهمرتْ الحجـارةُ علـى الخُـوَذ، يفـرّ مـع الأولاد؛ مـن قبـل أن يلتقطـوه؛ فيدكـوا عظامـه؛ مـن غيـرِ أنْ يتفهمـوا أنّـه ليـس سـوى الديـك.. وقـد يجـرُّه الصِّغـارُّ مثـل جريـحِ حـربٍ.. أمـه تأتـي؛ لتنـوح، وذراعاهـا فوقهـا تحومـان، مثلمـا تحـومُ أذرعُ كل الأمهـات.

والمنسي قد يقهقه، وهو يلوي عينيهِ: لا تخرج يا أستاذ.

هو الديكُ ذو العرفِ الشهير، النحيلُ الذي قد تقصفه أيُّ ريح...

كلُّ هذا ارتضاهُ.. لكنْ أن يصبح دودة.

كان وقتَها يستحمُ.. يغرفُ الماءَ بالمقلاة، ليسكبه مباشرةً على عُرفِ رأسِه، والماءُ يهوي إلى ساقيه القصبتين..

كانت الأشياءُ تبدو سليمةً، وكانت أذناه تحومان لاستقبال مَا تسنى من صوتِ نعمة التي خلف الجدار؛ لتنتفضَ ساقاهُ كوتَرَيْنِ لكلِّ همسةٍ يقذفها الجدار..

لم يكُن ما ينبئُ بخطر؛ قبل أن يعلو الصخب، وتأتي الهرولة، ثمَّ في لحظةٍ يطيرُ الباب...

في لحظةٍ صار ديكًا منتوفًا من الثياب..

صرخت أمّه، وهم يسحبونه.. وصرخت وهي تتعثر.. وصرخ هو كقصبةِ ريحٍ مثقوبة، وصراخُه جاء صفيرًا معطوبًا..

تضاحك الجندُ وهم يدفعونه إلى بيتِ المنسي، تعلق بصفيحِ الباب.. لم يفهمْ، ولم يتخيلْ عبوره إلى هناك.

نادى الله لاهثًا، ثم المنسي...

كانت على الباب معركةُ تدور... تخللها صوتُ المنسي المتهدّج من داخل بيتِه:

جننتنا يا ديك.. ولك ادخل تنشوف شو بدهم من سمانا؟

عند دحرجته إلى الداخل؛ كان قد تكوّم مومياء ترتعش، كيس جلدٍ قد ضمر، تشجّه عظامٌ متبقية... على التراب حطَّت غيمةُ السواد، غمرته، ثمَّ انغلقتْ... لم يتبقَّ في الدنيا سوى قهقهة الضابط، وشهقةَ نعمة... ثمَّ جاءت صيحةُ المنسي التي شقّت فؤاده:

معقول يا ديك؟ ولك أنت دودة مش ديك!

[77]

المُعلِّم بهجت

كان بظهرٍ منحنٍ قليلًا، وبوجهٍ أحمر تخاله إذا ما تكلّم؛ سيطفحُ الدَمُ منه.. في جلسات المعلّمين لا يبتسمُ، ولا يتكلّم... السيجارةُ لا تغادر شفتيه، فإذا ما ذوَت؛ دفع بأخرى... كان يشتعلُ.. ينفثُ سحاباتٍ، ويتدفقُ بالغضب.. يرددُ عبارة واحدة..

«.. ولك اسكت.. شو بيفهمك..»

كان ناقمًا، وصامتًا فقط... ولو أنتَ أعدت عليه رأيَه الذي كان اعتنقه؛ لسارع؛ وعاد صاح:

ولك اسكت.. شو بيفهمك...

كان يقضي وقته متنقلًا ما بين البيت، والمدرسة المجاورة، وبعد إياب الطلاب يبدأ رحلته الثانية في تعليم الدروس الخصوصيّة... باهتًا كان رغم حمرة وجهه، بعينين داكنتين تحتَ عويناتٍ سوداء، يسكنهما القلق، سترته لا تتغير طيلة العام، صيفًا، أو شتاءً.. تشغله سيجارته، ونظرة سخطه الناقمة..

يومًا سقط المعلّمُ بهجت... سقط، ولم يقم..

كان على سريرِ بيتِه ممددًا؛ جاء المعلمون والناظرُ... كنا صفًّا؛ نُقبلُ جبينَه البارِدَ؛ ونمضي... لحظتها رأيتُ كاملَ عينيه.. فهمتُ معنى الموتِ؛ حينما لا تقفلُ العينان.. ارتعشتُ، وأنا أنحني، ولكم حاولتُ أن أمنعَ انهياري حينما تمتم:

«ولك شو بيفهمك.. ولك غلط».

[78]

معلمُ التاريخ....

في ثانويتنا كان المعلمُ جميل جوار السبورةِ يبدو قصيرًا... إذا ما كتب؛ يقفزُ كأرنب، وإذا ما حكى؛ صوتُه بالكاد وصل.. ورغمَ إلمامِه العميق بمادةِ التاريخ؛ إلا أنَّ حجمه أضاع احترامَه لدينا، وصوته أثار السخرية..

أيام السنين البعيدة... عندما بدا كلّ شيءٍ مُباحًا لعقولنا الصغيرة، والجندُ يقتحمون المدرسة، يأخذون من يأخذون، ويتركون من يتركون، وناظرنا الوقور يشدّ بهم، ويشدون به، وهم يجرّون المأخوذين خرافًا من حظيرةٍ رخيصة..

ذات واقعةٍ سال دمٌ كثير، واعتقل كثيرون.. وكان الضابطُ قد جنَّ، فاستقدم قوات إضافيّة، ضرب طوقًا من خلف الجدران، وقفز مع العشرات إلى الفصول... كان الأستاذ جميل في فصلنا.. ورأيناهم من خلف النوافذ الواطئة، يرفعون الهراوات الغليظة..

لماذا ينسى التاريخُ تفاصيله الصغيرة؟

فوجئنا بالأستاذ يجري، ليسند البابَ بظهره الضئيل، ويبدأ بدفعهم، كان الباب ينفتح، لينصفق، والأستاذ تحته يعلو، ليهوي، هم يزيحونه، وهو يعودُ أكثر تصميمًا.. في لحظةٍ رأينا الضابط من خلفِ النافذة يتوعدنا.. سمعناهُ يشتم أستاذنا، وحكامنا، وديننا، ورأينا أستاذنا أيضًا يتبدّل، صوتُه لم يعد خافتًا ناعمًا.. سمعناه خشنًا عريضًا: تعالوا إلى هنا.. ادفعوا معي..

ثمَّ يردّد عبارةً قصيرة:

في فيتنام تُمسح قرى عن بكرة أبيها.. في فيتنام...

لحظتهـا قمنـا مـن ذهولِنـا.. هرولنـا دامعيـن.. احتضنـا البـابَ، والمعلّمَ... يومَها رأيتُ دمعًا فـي المآقـي.. ويومهـا استطال معلم التاريـخ... اعتلـى عقولنـا، وصـار قِبلتهـا المجيـدة.

[79]

قريني

مـن أيـن كنـتُ سـأدري بمـا أتـى، فـي البـدءِ لـم يكـنْ يظهـرُ فـي العلـن، كان فقـط يهمـسُ، وأسـمعُه طنينًـا، افعـل، خـذ، هـات، كان آمـري ومرشـدي، وكنـتُ الطائـعَ المتلقـي، كان برفقتـي أيـن حللـتُ، يسـكنني، ولا يغـادرُ، أسـتمعُ إلـى لهاثِـه، فأحتـارُ، أأنـا هـو، أم أنـا أنـا، كيـف أفـرّقُ مـا بيـن أنفاسـي وأنفاسـه، يبكـي، فأبكـي، يضحـكُ، فأضحـكُ، ويصـرخُ؛ ليسـبقني، كان لـي نبـيَّ النبـوءات، فيلسـوف حكايتـي منـذ البـدءِ إلـى المنتهـى، يفكّكُ، ويركّـبُ، يبشّـرُ، وينـذرُ، واحتـرتُ، أأمقتُـه، أم أحبّـه، علـى بسـطة الخضـار كان يحـركُ سـبابته، فأمـدّ سـبابتي، انتقـى مـا انتقـاه، فـي الشـارعِ كان يغتـاظُ؛ فأغتـاظُ، يبتسـمُ؛ فأبتسـم، وفـي البيـتِ يشـربُ إذا مـا عطشـتُ، وإذا مـا فرِغَـتْ معدتـي؛ يـأكلُ، أمَّـا أنـا؛ فارتعـشُ، إذا مـا ارتعـش، وإذا مـا مـدّ الخطـى؛ صـرتُ ظلّـه.. كلُّ هـذا قبـل أن يعلِـنَ عـن نفسِـه، وفـي ليلـةٍ ينكشـف، يمسـي حقيقـةً، ويخطـو هيـكلًا، لحظتهـا صحـتُ، فقـال: نعـم.. أنـا لا غيـري.. ثـمَّ احتضننـي، ليهدئَنـي، فاقشـعر بدنـي، وقـرأتُ بعضًـا ممـا أحفـظُ، صـاح: لسـت جنيًّـا يـا رجـل، فـي البيـتِ علـى وقـع خطـوي مشـى، وحيـن لاحظـتْ أمّ العيـال حيرتـي، أشـار بسـبابته إلـى شـفتيه أن أسـكت، فسـكتُ، وأطعـتُ أنـا، يلبَـسُ، فألبـسُ، يتعـرى، فأتعـرى، وفـي الفـراش يلاحقنـي، ليتوسـطنا... وأنـا فـي محاولاتـي لـم أزلْ، أعـود واحـدًا لبرهـةٍ، ثـمَّ أنفصـل، يرمقنـي، وأرمقـه، فـأرجُّ رأسـي محـاولًا التيقـنَ، مَـن الأصـلُ فينـا يـا تـرى، ومـن الصـدى؟

[80]

أرزاق

إن أسدلوا الجفون؛ صاح، وأصابهم الفزع:

أيّها الناس: وأوّلكم في ذلك الفقير، هذا رزقكم المقسوم، فاحمدوا ربّ العباد.

على المنبر تحوم ذراعاه، وترفعان طرفي عباءة الحرير، ويهتزّ على مكبّر الصوتِ، كلاعبِ سيف، تشخصُ فيه العيون، وهو يغيب، ويغرفُ لهم من التاريخ طريق الرضا.

إصغاؤهم يطيبُ له، ويُطربه خضوعهم، وقدرته على تنفيذ التكليف.

الغِنى غِنى النفس يا إخوان، وما امتلأت أمعاءٌ إلا بما عادت طردته..

وفي كلّ خطبةٍ يردّد:

هل سمعتم عن أحدٍ مات بالجوع؟ هه.

ويكونون في سباتٍ، وأصابع سابحات على المسبحات، وأفخاذ تنفرج، ومؤخرات تعوّج.

وإن في زاويةٍ نسيَ أحدٌ، وثرثر؛ ثار، ورفّ بعباءته، حتى حسبوه طار، وسارعوا يطأطئون.

أيها الفقراء: إياكم وإغواء الملاحدة الملاعين، الذين يقولون:

رزقكم في الأرض.

هكذا..

يأتـي؛ يفـوحُ منـه الطيـب، يقفـل بـاب عربـة الجيـب بالريمـوت.. يعتليهـم، ومباشـرةً يدخـل العـراك.

لكـن مـرّةً تفاجـأ الجمـع برقيـعٍ، فـي أوجِ الخطبـةِ قـام، والخطيـبُ يهتـزّ، هنـاك علـى المنبـرِ.. رؤوا، ويالهـول مـا رؤوه.. تنقّـل المنحنـي، ثـمّ صعد، فعـلًا صعـد، وللحظـةٍ احتضـن الخطيـب، ثـمّ الخطيـبُ سـقط.

وسـمعوا، ويالهـولِ مـا سـمعوه؛ مـن بعـد أن انتصـب الرقيـع، وصــاح:

وهذا رزقُك يا إمام.

ورفعَ بقبضته خنجرًا الذي قطر.

[81]

شيخوخة

إلـى سـريرِه فـي غرفـةِ بيـتِ المسـنين؛ وصلـه الصـوتُ الأنثـويُّ متأوِّهـا، يقطِّعُـه أنيـن..

رأسُـه سخِن؛ ثـمّ صـار يغلـي.. قـام؛ كمـا لـم يقـمْ منـذُ زمـنٍ. صيحـةٌ ناعمـةٌ نادتـه؛ فاندفـعَ بسـروالِ البيجامـا؛ ثـمَّ بـدأ مـع يديـه الناحلتيـن؛ يتسـلَّقُ حافةَ السّـلم..

فُتـح بـابٌ؛ وعجـوزٌ مثلُـه أطـلَّ بملابسِـه الداخليـة.. فوقهمـا انتفـض الصـوتُ، ثـم تراخـى ناعمًـا.. دمعـتْ مآقيهمـا، ثـمّ تبسّـما.. فـي العالـي تفتحـتِ الأبـوابُ، وزحفـت الهيـاكلُ فـي مسـيرةِ سـيقانٍ راجفـة..

علـى السطحِ توقفوا، ثـمّ تنقّلـوا حائريـن، لـم يكـن هنـاك سـوى لاقط الإرسـال؛ تؤرجحُـه الريـحُ، ومعهـا يصفـرُ مثل أنثـى جريحة.

[82]

إطعام..

أمُّ علـيّ لا تبـرحُ الجـدران، فقـط يأتيهـا ضـوءُ النهـار؛ فيضـرب حصيرَتَهـا، فتصافـح نـورَه، دونمـا تـراه، رزقُهـا أيضًـا يأتيهـا مـن غيـرِ أنْ يُطْـرَقَ بـاب كوخِهـا: قطعـةُ لحـمٍ، فتـاتُ خبـزٍ، وحتـى تفاحـةٌ أحيانًـا.. أو أيّ شـيء كان..

أبـو ذراع أثـارَهُ الفضـول، جـاء بخفـةٍ؛ يترصـدُ عـن كثـبٍ سـرَّ العميـاء.. رآهـا ترفـعُ رأسَـها، كأنّهـا علـى ميعـاد، وتنشـرُ ابتسـامةَ التجاعيـد، ورأى سـقطةَ حبَّـةِ الكوسـا المحشـوة بـالأرز واللحـم، وميَّـز فرحـةَ الكفيـنِ المعرّقتيـن، أمّـا علـى الجـدار فكانـت ذاتُ القطـةِ التـي تتخطـفُ أطعمـةَ آنيـة بيتِـه، وشـهقَ أبـو ذراع، والقطـةُ ترمقـه، وحـدّقَ وهـي مـن فوقـه تمـوء، ثـمَّ طأطـأ رأسَـه، ومضـى يجـرّ سـاقيّ بطنِـه، وكان فمُ أمّ علـيّ علـى مهـلٍ يـدور، ويلـوكُ بـلا أسـنان..

[83]

ماذا أرى؟

في البَدءِ ظهر كفأرٍ، التصق بأعلى الحائط، ينفضُ ذيلًا، ويحرّك أذنين، بعدها سبح، فانتقل بضع بوصاتٍ، وعاد ثبت.
وقد رمقته، وأنا الكسولُ المتثاقل، وهو يعبرُ اللّوحة؛ ويصيرُ منها، وداخل الإطار يتلاعبُ كرسمٍ بارع.
لكنّه نزل، بل قل؛ قفز.
ثم ركض ركضتين، وجاورني، وشهقتُ، وأنا شهقتُ، وقلتُ: اهدأْ.
وفي لحظةٍ وجدته قربي حمامةً بلون الفأرِ، بل قل: جمامة.
أو كائنًا بليدًا، وأنا المبغضُ؛ فحاولتُ هشّه، وكان المهمل لي؛ فغمرني خوفي، واهتز أنفي، فدسسته في إبطي، ورجفت عيناي؛ فأغمضتُهما، وأسكنتُ أصابع مشط قدمي اليمنى، تلك التي كانت بارزة خارج البطانية.

عمر مصطفى حَمّش/ غزة، فلسطين.

السيرة الذاتية:

روائـيّ، وقـاصّ.. وُلِـد سـنة ١٩٥٣، وعـاش فـي مخيمـاتِ اللجـوء بغـزة. أحـد مؤسسـي اتحـاد الكتـاب الفلسـطينيين. حـائـز علـى جائـزة دولـة فلسـطين التقديريـة فـي الآداب. وعلـى وسـام القـدس للثقافـةِ والفنـون.

المؤلفات:

1 - أزهار إلى مقبرة المخيم - قصص.

الناشر: اتحاد الكتاب الفلسطينيين.. ١٩٩٠

2 -الخروج من القمقم - رواية.

الناشر: اتحاد الكتّاب الفلسطينيين ١٩٩٢.

3 - عودة كنعان - قصص.

الناشر: اتحاد الكتّاب الفلسطينيين ١٩٩٦.

4 - في حزيران قديم. رواية.

الناشر: وزارة الثقافة الفلسطينية ٢٠٠٠.

5 - فخاخ الكلام - قصص قصيرة جدًا.

الناشر: وزارة الثقافة الفلسطينية ٢٠١٣.

6- عرشي الصقيل - قصص قصيرة.

الناشر: دار أوراق. مصر سنة ٢٠١٧.

7- العودة إلى مجدل عسقلان - قصص قصيرة.

الناشر دار أوراق للنشر ٢٠١٥.

8- فراشةُ البوح - قصص قصيرة

الناشر: مكتبة كل شيء – حيفا ٢٠١٥.

9- سيفُ العسل - قصص قصيرة جدًا

الناشر: مكتبة كل شيء - حيفا ٢٠١٦.

10- مفاتيحُ البهجة. رواية.

الناشر: دار كلّ شيء بحيفا. ٢٠٢١.

11- قصص فلسطينية مشتركة.

الناشر: اتحاد الكتاب الفلسطينيين سنة ٢٠٠٣

12 - غوايات القصّ. قصص عربية مشتركة.

الناشر: دار أوراق للنشر. مصر سنة ٢٠١٥.

بينما ينشغل العالم بأهوال صور القتل الجماعي والدّمار القادمة من غزة المكلومة، ثمة صور أخرى لا تصل إلى عيوننا، تتوالد عبر أدوات التعبير الأدبية والفنيّة المختلفة في مزجٍ ألمعي ما بين الواقع والخيال، حتى أننا لم نَعُد قادرين على التمييز بين ما نراه من أحداث وما هو متخيّل، من يسبق الآخر؟ لعلّنا أمام إبادة تتجاوز حدود الوضوح!

يأتي مشروع سلسلة "إصدارات من غزة" في وقت نحتاج فيه إلى تسليط الضوء على الأبعاد الإنسانية الصارخة لهذه الحرب التي يعيشها شعبنا الفلسطيني، فهذه الحرب ليست مجرد أرقام أو تقارير إخبارية، بل هي مجموعة من القصص الحيّة، والتجارب اليومية، والأحلام المكسورة التي تشكل حياة الأفراد والعائلات في غزة. في كل يوم، يتعرض الفلسطينيون لأهوال تفوق التصور، لكنهم يظلون متمسكين بالأمل والإبداع في مواجهة الصعوبات.

من خلال هذه الإصدارات، سنستكشف تجارب إنسانية فريدة مغلفة بالفن والأدب كمصادر للمقاومة، وسنسلط الضوء على تأثير الإبادة على الهوية الإنسانية الفلسطينية. سنتناول قصص الأفراد الذين يتجلى صمودهم في مواجهة التحديات، وكيف تعكس أعمالهم الفنية والأدبية معاناتهم وآمالهم.

أدعوكم جميعًا للانضمام إلينا في هذه الرحلة، لنعمل معًا على إيصال صوت غزة إلى العالم، ولنُظهر أن الأمل والصمود يمكن أن يكونا سلاحنا الأقوى في مواجهة الظلم.

وزير الثقافة

أ. عماد عبدالله حمدان

رقمنة

وزارة الثقافة
Ministry of Culture

لقد مثّل النشر عبر العصور أداةً للتمدّد والاحتواء، وهو بذلك استطاع أن يمتلك قُدرة استثنائية على التجدّد والتنوّع في حركته وتحوّلاته التقنية، بدءًا من الإيماءة ومرورًا بالنقش ثم الطباعة على الورق، ليُشكّل بذلك ضوءًا مُتعدّد الطبقات، يَقبضُ بوميضه على أحاسيسنا المتغيّرة بفعل الزّمن.

إن تمدّدًا على هذا النّحو، يمكنه أن يقلّص المسافة، وأن يُجسّد حاجتنا إلى التنقّل عبر المحطات العابرة للتاريخ، بل يُثري تجاربنا في تشكيل القوالب الحيّة لذاكرة لا تغيب.

فتلك التحوّلات التي أنتجتها التكنولوجيا لم تأتِ صدفةً، إنها انبثاقُنا المبتكر نحو خلق الترابط مع الآخر في هذا العالم الوسيع.

ضمن تلك الرؤية، صمّمت وزارة الثقافة مشروعها نحو النشر الرقمي ليقينها بضرورة توسيع نطاق النّشر وإتاحته أمام أكبر عدد ممكن من الباحثين والدارسين والقُرّاء.

وزير الثقافة

عماد عبدالله حمدان

رقمنة

مشروع النشر الرقمي